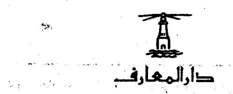
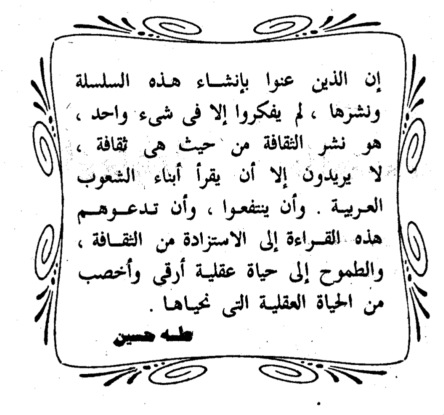
فتحى الإبيارى

أدباؤنا . . والحب



دار المعارف



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

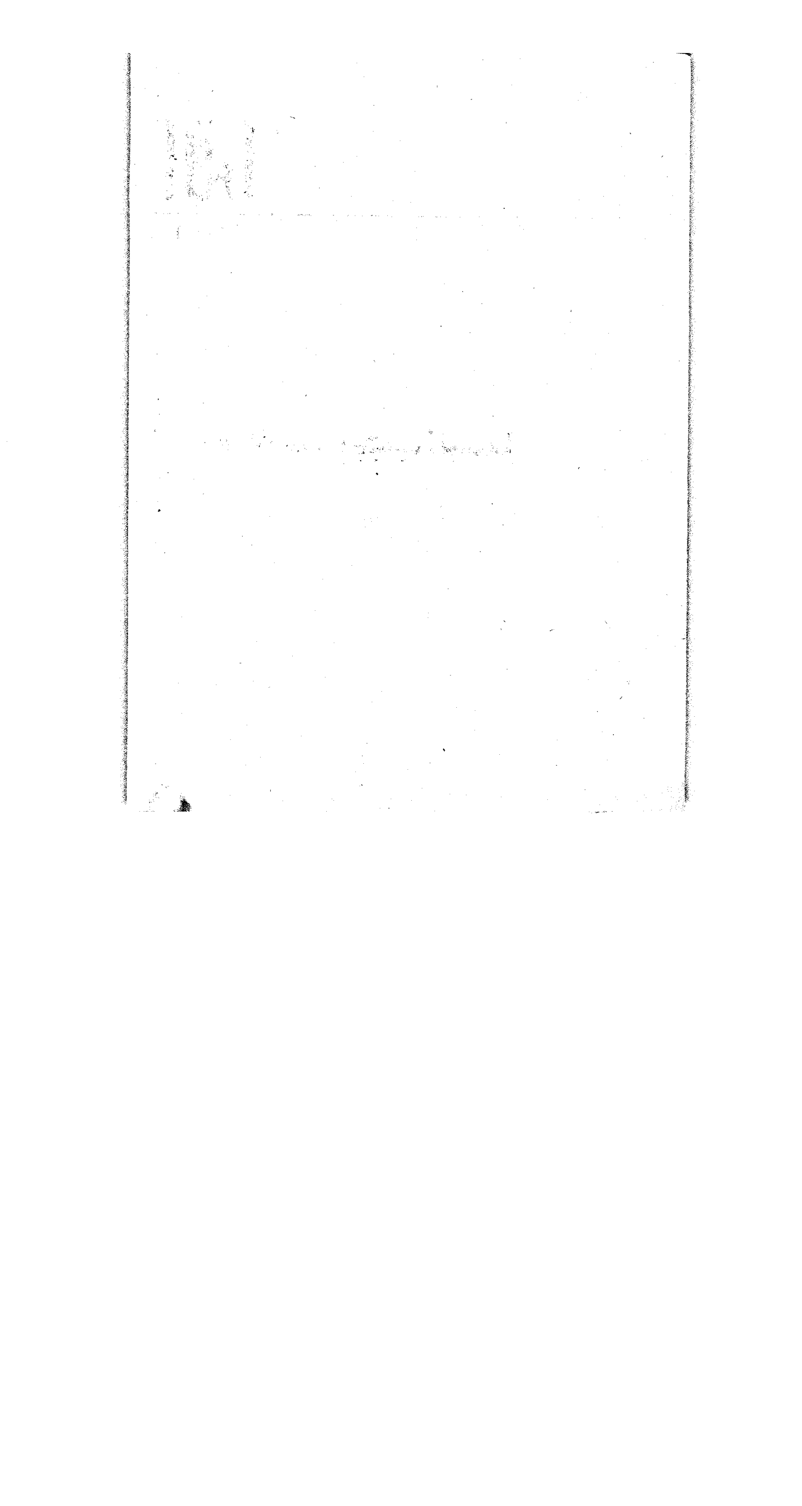
طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



[٦٠٠]

رئيس التحرير: رجب البنا



مقدمة

كلمة حب

هذه الصفحات .. هى رحلة حول الحب فى إبداع أدبائنا خلال أعمالهم ، فى أشعارهم ، ومسرحياتهم .. وإبداعاتهم المختلفة ..

وقد حاولت أن أرصد أهم الإبداع الأدبى من رؤية الحب فقط .

كيف يصوره الأديب .. ويعبر عنه ،نتيجة للمتغيرات التى حدثت فى البناء الاجتماعى ، والثقافى ، والفكرى ، والاقتصادى ، والسياسى .

إن قيثارة الحب .. التى عزف عليها أدباؤنا ، ألحانا حزينة تارة ، وألحانًا غارقة فى الرومانسية تارة أخرى ، تكشف لنا مكنونات أحاسيس ومشاعر وقلوب هؤلاء .

وحاولت فى دراسة قصيرة جدًا .. أن أبحث عن جواب .. للسؤال الخالد .. لماذا أسموه الحب .. وما مراحل هذا الحب .. عند العرب .. فلكل مرحلة كلمة تدل عليها .

وكلمة الحب هذه حارت فى مدلولها الأفهام .. منذ العصور الأولى .. إلى الآن .. وإلى الغد ..

وسوف تظل أسطورة الحب .. ملهمة للأدباء والفنانين .. والكتاب والمفكرين والفلاسفة .. إلى نهاية العالم .

والرؤية التى خرجت بها من تلك الرحلة القصيرة جدًّا .. بين إبداعات هؤلاء الأدباء .. هى .. أن الإنسان يستطيع أن يشترى أى شىء فى العالم بأمواله .. وسلطانه .. وجبروته .. إلا الحب ..

لماذا ؟

لأنه قدر

وطوفان ..

تصاب به القلوب العاشقة فقط !!

فتحى الإبيارى

لماذا كان اسمه الحب ؟

الحب كما قال دانتى .. « يحرك الشمس والنجوم » وكما يقول الموسيقار العالمى « ثيودراكيس » عندما نعرف الحب جيدًا فإننا نعرف المقاومة جيدًا أيضًا .. وهناك الكثير من الأقوال والكلمات التى قيلت عن الحب .. منها .. « لذة الحب هى فى الحب » و « الحب الذى يمنح الإنسان أقصى سعادة هو الحب الذى يحسه » .

وكان للحب عند أدبائنا تعريفات وأوصاف .. فطه حسين يرى « أن الحب لا يسأم ولا يمل ولا يعرف الفتور .. ولابد أن تلح فى حبك حتى تظفر بمن تحب أو تفنى دونه » ، وقال العقاد « إنك لا تختار حين تحب .. ولا تحب حين تختار .. وإننا مع القضاء والقدر حين نولد.. وحين نحب .. وحين نموت » .. وكانت رؤية الحب التى استخلصها كامل الشناوى من تجاربه وحياته تتمثل فى تلك الكلمات « الحب .. أن تتعذب بمن تحب وأن يعذبك من تحب » . أما محمود تيمور فيرى أن « الحب .. ينبغى أن يملأ حياتنا .. إنه الروح الدافعة للإنسان .. للعمل والخلق والإبتكار .. فإذا انعدمت هذه الروح فقدت الحياة أهميتها ، وأصبحت بلا معنى بلا هدف .. بلا غاية » .

وهناك الكثير من الكلمات التى حاول أدباؤنا وأدباء العالم أن يحددوا بها ملامح الحب ، من خلال تجاربهم وانفعالاتهم وأحاسيسهم .. ولكن

السؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو لماذا أسموه الحب ولماذا اختاروا هذين الحرفين « الحاء » و « الباء » اللذين تتألف منهما كلمة « حب » للدلالة على تلك العاطفة السحرية التى يقع فى دوامتها العشاق ؟ . وكما أن الأدباء استطاعوا أن يحددوا بعض ملامح الحب كذلك حاول بعض الغواصين أن يبحثوا فى أعماق محيط الحب عن سر هذه التسمية .. واختيار حرف الحاء والباء للدلالة عليه .. فيحاول السيوطى أن يعلل هذا السر بقوله : أما لماذا اختير حرف « الحاء » فلأنه ينطق من أقصى الحلق ، وهو مبدأ الصوت .. ومخرجه قريب من معدن الحب وقراره ..أعنى القلب .

وأما لماذا اختير حرف « الباء » فلأن النطق به من الشفتين وهما آخر مخارج الصوت ، وهكذا جمع الحرفان بداية الصوت ونهايته .. ويشتمل كلاهما على معنى الحب وهو بداية العاطفة ونهايتها .

أما لماذا نطقوا لفظ « الحب » بضم الحاء وعدلوا من قياس مصدره وهو الفتح ، فلأن قوة معنى العاطفة وتمكنها من النفس مما يقتضى اختيار أقوى الحركات فاختاروا الضمة لأنها أقواها، حتى يتشاكل اللفظ والمعنى . وأن فى الضّم من الجمع ما يوازى ما فى معنى الحب من جمع الهمة والإرادة ، وبذلك يستشعر الناطق بلفظ الحب والسامع له قوة معناه ..

ولغتنا العربية فيها ثراء كبير ، فأول مراحل الحب .. **الهوى** .. ثم بالنسبة لمراحل الحب المختلفة .. **العلاقة** .. وهى الحب اللازم للقلب .. ثم **الكلف** .. وهو شدة الحب .. ثم **العشق** .. ثم **الشغف** .. وهو إحراق للقلب مع لذة يجدها واللوعة واللاعج .. فإن تلك حرفة الهوى

وهذا هو الهوى المحرق ، **والشغف** .. هو أن يبلغ الحب شغاف القلب ، وهى جلدة رقيقة تحيط بالقلب . وقد قرأنا جميعًا (شَغَفَهَا حبًّا) ، أما **الجوى** .. فهو الهوى الباطنى . ثم **التيم** .. وهو أن يستعبده الحب ، ويقول رجل مُتَيَّم .. « التبل » وهو أن يسقمه الهوى . ويقولون أيضا رجل « متبول » . أما **(التدليه)** فهو ذهاب العقل من الهوى ، فيقولون فى مثل هذا المحب رجل مُدَلَّه . وآخر مراتب الحب فى لغتنا العربية « **الهيوم** » وهو أن يذهب المحب على وجهه ، لغلبة الهوى عليه ، فيقولون عن هذا المحب « رجل هائم » .

كلمة حارت فيها الأفهام

الحب كلمة من حرفين فحسب .. ولكنها كلمة حارت فيها الأفهام واختلفت الأقوال وعجزت عن تعريف الحب .. أقلام الكتاب والمفكرين وقصائد الشعراء وأغانى المغنين وحكمة الفلاسفة ، وما أروع قول شوقى : « الحياة الحب والحب الحياة » ! .

وفى مأدبة أقامها الشاعر الأثينى **أجاثون** لأصدقائه المقربين بمناسبة فوزه بجائزة المسرح ، راح المجتمعون يناقشون هذا الموضوع المحبب إلى القلوب : قال **فيدروس** : « الحب هو أقوى الآلهة ، وأعظمها بأسًا ..وهو هذا المبدأ الذى جعل عامة الشباب أبطالا صناديد . فالمحب يخجل أن يتصرف تصرف الجبناء فى حضرة محبوبه ، فأمدونى بجيش من المحبين ، وأنا أستطيع أن أغزو به العالم » ..

وقال الشاعر الفكاهى **أرستوفان** : « فى الأيام الغابرة كان الجنسان متحدين فى جسد واحد .. وكان هذا الجسد مستديرًا كالكرة له أربع أيدٍ وأربع أقدام ووجهان . وكان يتحرك بسرعة عجيبة مستخدما أعضاءه الثمانية كدولاب العجلة يتقلب بلا انقطاع . وكانت قوة هذا الجنى الذى يجمع بين الذكر والأنثى فى جسد واحد رهيبة مخيفة ، وأطماعه لا تحدها قيود ولا سدود وراح يدبر أن يرقى السموات . ويهاجم الآلهة . وهناك اهتدى زيوس إلى حل موفق سعيد .. فقطع هذا الجنى نصفين ، فتهبط قوته إلى النصف وتتضاعف تضحياته .

وتكلم **سقراط** فقال : الحب هو شوق النفس الإنسانية الملح إلى الجمال الإلهى . والمحب لا يشتاق إلى التماس الجمال فحسب ، بل إلى إبداعه ونشره وزرع بذرة الخلود فى الجسد الفانى . وهذا هو السر فى حب كل جنس للجنس الآخر .

صلاح عبد الصبور



* الحب لا يعترف بالزمان
وغدره، لأنه أقوى
من كل شيء .

صلاح عبد الصبور

الحب : أجمل ما فى الحياة ، ولولاه ما كان لهذه الحياة المتقلبة مذاق وحلاوة ، بالحب تغزل عمر بن أبى ربيعة وسمى بشاعر الغزل ، وعن الحب حكيت أشهر القصص والروايات فى الشرق والغرب ، وعرف بأسماء مختلفة ، الحب الأفلاطونى ، الحب العذرى ، وذاع صيت الأحبة ،روميو وجوليت ، وجميل وبثينة ، وقيس وليلى .

وقصة ليلى والمجنون ، حيرت الأدباء والباحثين والشعراء ، قالوا عنه إن حبه أدى به إلى الجنون ،وأنه سار فى الصحراء يناجى ليلاه وينظم الشعر ليطفىء لهيب حبه لليلى ، ولولا هذا اللهيب ، لما وصلت إلينا أشعاره الخالدة ، ولما دفعت حكايته أمير الشعراء أحمد شوقى لينظم لنا مسرحيته الشعرية المعروفة .

وفى كل يوم نسمع ونقرأ ألوانًا مختلفة من الحب بين شاب وفتاة ، ولكن بصورة مختلفة ، قصة شابين عاشا فى الحب حتى الثمالة ، ولكن لم تنته القصة كما كان يرسم الحبيبان ،وتفرق بينهما أشياء وأشياء ، ويفترق كل حبيب ولكن جذوة الحب ما تزال فى قلبيهما .

وأثارت حكايات الحب قيثارة الشاعر صلاح عبد الصبور ، وعاد يتفحص مسرحية شوقى عن « قيس وليلى » ، لم يقتنع بأن سبب فراق قيس عن ليلى أنه نظم فيها أحلى الكلمات من شعر الغرام الملتهب .

لم يقتنع صلاح عبد الصبور بالإغماءات الكثيرة التى أصيب بها قيس

كما صوره شوقى ، ولم يقتنع بسبب الفراق بين قيس وليلى .. وبدأ يبحث عن أسباب جديدة من عصرنا الحديث ، عصر القلق والاضطراب والغربة والضغط الاقتصادى ، فكتب مسرحية شعرية جديدة باسم « ليلى والمجنون » مرتكزًا على الواقع العصرى الذى يعيشه كل قيس من شبابنا وكل ليلى من فتياتنا .

وكتب أيضًا مسرحية جديدة عنوانها « الأميرة تنتظر » استوحى فكرتها من الأسطورة اليونانية « ميديا » مع تعديلات كثيرة تبعدها عن القصة الأصلية فـ « ميديا » كانت تعيش فى قصر أبيها حياة رخاء ونعم ، ولكن أحد المغامرين يوهمها بأنه يحبها ، ويغريها بسرقة مفتاح قصر الملك ، وينجح فى ذلك ويستولى على المفتاح ، ويتمكن من اقتحام القصر هو وأعوانه ويقتلون الملك ويصبح المغامر هو كل شىء فى المملكة ، وعندما يتمكن من كل شىء .. يعزل الأميرة ويحبسها فى قصر منعزل ، فتعيش هى وثلاث من وصيفاتها يمارسون يوميًا طقوس العذاب والندم ، وتحاول الأميرة أن تكفر عن جريمتها ، فتنتظر المغامر بعد أن عرفت أنه فشل فى حكم مملكة أبيها ، وقررت أن تنتقم منه ، ولكنه عندما جاء استطاع أن يسترضيها وأن يعتذر لها ، ويبثها حبه وغرامه وكادت الأميرة أن تستسلم له ولكن الوصيفات اليقظات بمعاونة أحد عابرى السبيل تمكنوا من قتل هذا المغامر وإنقاذ المملكة .

بهذه المسرحية ينتهج صلاح عبد الصبور أسلوبًا جديدًا فى حياته الفكرية بعد إصدار أربعة عشر كتابًا من الأبحاث والدواوين ويقول :

حقيقة أن تسعة عشر عامًا قد مرت .. ولم يظهر كوكب ساطع يغطى بنوره كل النجوم .. مثل شوقى فى عصره ، ولكن لا نظلم الأجيال التى جاءت بعد شوقى ، فهناك جيل الوسط ، وقد تألق فيه شعراء مثل على محمود طه ، وبشارة الخورى ، والجواهرى .

أما جيلنا فقد بدأت كتاباته تظهر بعد عام ١٩٥٠ ، وقد عانى أبناء جيلنا الكثير من التجارب المتجددة ، لذلك فمن الصعب نظرًا لقصر مدة الإبداع أن يحتل أحدهم نفس مكانة شوقى ، فحياتنا تختلف عن العصر الذى كان يعيش فيه ، فلا يوجد فى عصره تليفزيون ، وإذاعة .. و ..

أما صفات الكوكب المتألق ، فهى أن يكون معبرًا عن عصره وسابقًا له فى نفس الوقت ، فبالنسبة لشوقى .. فلا ينكر أحد أنه كان موهبة ضخمة جدًا .. ولكن هناك ظروفًا قد ساعدت على الترويج لهذه الموهبة ، منها أن شوقى كان فى قمة الحياة الاجتماعية فى عصره ، فكما كان شاعر الخديو .. كان أيضًا مقربًا من جميع السياسيين الذين عرفتهم مصر ، حتى أن سعد زغلول رأس احتفال تتويجه أميرًا للشعراء .

وأن شوقى كان على علاقة طيبة أيضًا بالصحافة ، ولكن هذا كله لا ينفى – كما قلت – أن شوقى كان موهبة ضخمة ، وكان معبرًا عن نزعة الكلاسيكية الجديدة فى عصره ، كما كان سباقًا لهذا العصر حين حاول أن يكتب المسرحية الشعرية .

يقول سيد العشاق الشاعر لوى أراجون : إنه سيخترع الوردة من أجل حبيبته .. إنه لم يخترع الوردة فحسب .. بل اخترع عالمًا بأسره ..

إن كلمات الحب أجمل من الحب ، ووصف العالم أجمل من العالم .. ولوحة دافنشى أجمل من « الجيوكندا » ذاتها .

وصلاح عبد الصبور فى قصائده الأخيرة التى نشرت فى ديوانه الخامس « عمر من الحب » ليست سيرة قلبه كما يقول ، ولكنها ترجمة شعرية لسيرة قلبه ، والشعر والحب عنده مثل الخنجر ذى الحدين ، حين غرس أحدهما فى قلبه ، غرس الآخر .

والحب عند صلاح ليس فلسفة ، ولا وسيلة يرتقيها ليغلف بها أبياته الشعرية ، ولكنه إحساس عميق دافق نابع من أعماق الوجدان ،يعبر عن تجربته فى عالم الحب والإنسان ، ومن خلال الحب أبدع مسرحياته « مسافر ليل » و « الأميرة تنتظر » و « ليلى والمجنون » حيث بلور فى تلك المسرحيات الشعرية ، رؤيته العصرية لبعض الروايات والأساطير القديمة التى تناولها بعض الأدباء والشعراء من قبل — هذه الرؤية كما يراها شاعرنا الملهم فى الحب هذا الزمان .. إنه كالحزن لا يعيش إلا لحظة البكاء .. وأن ما حدث كان إرادة القدر ، والقدر يلعب كثيرًا فى أوراق عمرنا ، وأحيانًا يعبث بها ، ومع ذلك فلابد لنا من أن نقاوم مهما كانت النتيجة ، ويكفى أن نقاوم .

أما الذى أغلى من العيون ..فيراه شاعرنا فى همسة للؤلؤته المنورة ، التى هى أنقى من الظلال فيقول لها :

يطيب لى فى آخر المساء أن أقول كلمتين :
شفاعة أرفعها إليك يا سيدة النساء .
الحب يا حبيبتى أغلى من العيون .

صونيه فى عينيك واحفظيه .
الحب يا حبيبتى مليكنا الحنون .
كونى له مطيعة سميعة .

والحب عنده وعند حبيبته هدية السماء لهما ، لمتعبين حائرين فى السنين الطويلة الظلام ، لذلك فإن هذا الحبّ هو فردوسهما الأمين ، حين تعطيهما الأيام ظهرها ، وتنتهى رحلتهما لشاطىء النهاية ، نهاية لحنهما الجميل .

وفى قصيدته « أغنية حب » التى يصف فيها وجه الحبيبة ، كأنه خيمة من نور ، وشعرها كحقل حنطة ، ونهديها كطائرين توأمين يهديها قلبه ، مستغفرًا لها ، قلبه الأبيض كاللؤلؤة ، الطيب كاللؤلؤة اللامع كاللؤلؤة .. إنها هدية فقير ، وربما زين قلبه عشها الصغير .ثم يقول لها فى « أناشيد الغرام » :

لحن الختام يا حبيبتى .
هو السلام والدعاء .
وأن تكونى فىّ .. إلى الأبد .

وأن يكون حبّنا مباركًا كا الحياة ، وناميًا عميقة جذوره فى نفوسنا .

ولهذا ، فإنهما سيعيشان الأيام طاهرين ، ممزوجة أقدارهما فى كأس يشربان ما فيها معًا ، وأن تكون عيناها هى آخر ما يراه فى حياته ، وعندما يكون قلبها الكبير بجوار قلبه ، فالبحر لن يفصلهما عن بعض ، والنار لن تخيفهما وكل شىء عندئذ يهون ، مادامت له إلى الأبد .

والإحساس الذى تحس به وأنت تعيش فى أبيات صلاح عبد الصبور هو أنك تهتز من أعماق قلبك ، لأن الشاعر لا ينحت كلماته فى قوالب جوفاء مرصوصة بجوار بعضها لتصبح فى النهاية أبياتًا باردة خاوية ، بل إنك تحس بالنبض نبض قلبه بجوار قلبك ، وبحرارة الدماء ، وهى تسيل من كل كلمة ، وكأن الشاعر قد غرس ريشته فى قلبه واستمد من دمائه الملتهبة وقلبه الدافق المضطرب المعذب المحب العاشق ووجدانه وذكرياته وخيالاته الحية استمد من كل هذا نسيج أشعاره الدافئة الحارة .

كما اتسمت أشعاره الرقيقة الحلوة بعنصر قصصى جذاب مشوق فى كثير من قصائده . وهذا العنصر الدرامى الذى يجيده شاعرنا دفعه إلى أن يغذى المسرح الشعرى العربى بأربع مسرحيات شعرية بدأها بـ « مأساة الحلاج » .

وقصيدته أغنية فى فينا .. هى لمحة فنية خالصة كأنها أقصوصه محكمة البناء ، فهو يصف فيها لحظة صباح وقد وقف يتأمل رفيقته التى كانت تنام فى سريره ، وقف يتأملها ويتذكر ليلة الأمس حين التقيا ، وحين تعانقت شفاههما ثم أمضيا الساعات معًا .. تلك الساعات التى مرت سراعًا ، إلى أن جاءت لحظة الافتراق ، وتفرقت خطواتهما فوق السلالم القديمة للفندق . ونزلا للطريق واجمين ودخلا فى مواكب البشر المسرعين الخطو نحو الخبز والمثونة ونحو الموت أحيانًا ، وفى هذا الزحام افترقا ولم ير أحدهما الآخر .

وللحب سهام نافذة إلى القلوب مباشرة ، فحين يصاب قلب الحبيبة برعشة الحب العارم ،تفقد القدرة على الإبصار إلا من عينى حبيبها

ولا تستطيع إدراك الأشياء ، فإذا أمسكت بشيء فإنه يقع منها دون أن تدرى ، لأنها تحس بقلبها وليس بيديها وتظل ساهمة لأن روحى الحبيبين تتعانقان فى لهفة فى عالم حالم .. لا عيون فيه ولا رقباء لأن الجحيم هو عيون الآخرين ، وهدايا المحبين لا تقدر بمال قارون ، فيكفى أن يهدى الحبيب محبوبته خاتمًا بسيطًا رقيقًا ، ويلثمه بقبلة معبرة عن مكنونات قلبه .. عندئذ ينقلب هذا الخاتم البسيط إلى أغلى الأشياء لأنه يحمل أجمل ذكرى بين الأثنين وخاصة عند الحبيبة ، وهكذا تتحول الحياة الروتينية بأشيائها التافهة المسطحة إلى أحلام وردية يطير فيها العاشقان لحظات ما أجملها بعيدًا عن عالم الواقع المتعفن المرير القاسى .
ولأن الحب مثل الشعر ، ميلاد بلا حسبان ولأن الحب قهار مثل الشعر ، فيحدثنا شاعرنا فى قصيدته « أقول لكم » عن الحب ..فماذا يريد أن يقول إن حديث الحب يوجعه ويطربه ويشجيه ، ولما كان خفق الحب فى قلبه هو النجوى بلا صاحب ، فقد شكا الحب للصحاب والدنيا ، فازدادت وجيعته إلا أنه أحس بالراحة عندما قالت له حبيبته : إن الأيام قد طابت معه وأنها عرفت أخيرًا أنها له وأنه لها ، ومهما كانت الليالى الطوال التى فرقت بين قلبيهما والعقبات التى قد تعترضهما ، فالحب لا يعترف بالزمان وغدره لأنه أقوى من كل شيء .

طــه حســين



* الحب لا يسأم .. ولا يمل .. ولا يعرف الفتور ولا يخاف الإخفاق .. ولكنه يلح .. حتى يظفر أو يفنى صاحبه .. وقد ألح حبى .. وأسرف فى الإلحاح »

« طه حسين »

كانت حياة طه حسين بباريس مليئة بالآلام والآمال .. وعاش فى تلك الأيام أعنف قصة حب فى حياته – هى الأولى والأخيرة – وقد أثرت فى أعماله وفكره وعلاقاته بالناس ، وقد روى طه حسين حبه فى أبدع صورة أدبية تعد من أجمل قطع أدب الاعترافات لهذه الفترة من حياته : « لقد كنت أسمع صوتها وهى تقرأ لى أو تتحدث إلى فأشغل بهذا الصوت مما كان يحمل إلى من الألفاظ ، عما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان ، ولو أن سائلا سألنى فى وقت من هذه الأوقات عما سمعت أو عما وعيت لما استطعت أن أجيب إلا بأنى سمعت أجمل الموسيقى وأعذبها ، ولو أن سائلا سألنى عما وعيته من هذه الموسيقى العذبة ، لما استطعت أن أجيب إلا بأنى أحب مصدرها ، ولكن أحدًا لم يكن يسألنى ، فلم أكن بحاجة إلى أن أجيب ، إنما كنت أسأل نفسى ، وأجيب نفسى ، وأغتبط بما كنت أجد من سعادة » .

ويستمر طه حسين فى وصف خلجات قلبه ، فى أجمل لحظات عمره وهو يحيا قصة الحب تلك فيقول : « ولا أحفل بما كنت أضيع من وقت ودرس ، ثم يأتى هذا الحب إلا أن يعلن نفسه ولكنه لا يلقى صدى إلا أن يكون هذا الصدى رفقًا وعطفًا وإشفاقًا ، والحب لا يسأم ولا يمل ، ولا يعرف الفتور ، ولا يخاف الإخفاق ، ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه .. وقد ألح حبى وأسرف فى الإلحاح » .

طـه :سوزان .

سوزان : نعم يا مسيو طه .

طـه : هل هناك أحد بجوارنا .

سوزان : كلا .

طـه : أرجوك أن تكفى عن القراءة قليلا .. أريد أن أحدثك حديثًا خاصًا .

سوزان : تفضـل .

طـه : صحيح أننى لم أرك بعينى ، ولن أراك رؤية مادية ، ولكنى كنت أراك كل هذه الشهور ، وأنت تجلسين بجوارى تقرئين كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .. سوزان .. إننى أراك كل لحظة بقلبى .. وهو أصدق من يرى .

سوزان : مسيو طـه .

طـه : أرجوك يا آنسه سوزان .. أرجو أن تستمعى إلى هذه الدقائق ، إننى عشت مع الأحلام هذه الدقائق التى سأقول لك فيها هذا الكلام .. إننى يا آنسه سوزان أحبك من كل قلبى وأريد أن أتزوجك .

سوزان : يا إلهى .. (تبكى) .

طـه : آنسه سوزان .. أرجوك .. ألا تبكين .. أعلم أن الموقف شديد التعقيد بالنسبة لك .. وخاصة أنك كاثوليكية .. وأننى مسلم ، وخشيت أن أبوح لك بكل ما يعتمل فى صدرى من هذا الإحساس الذى يسمونه الحب ، وضغطت على قلبى شهرًا وراء شهر ، ولكننى يا آنسة سوزان

كلما سمعت أذناى موسيقى صوتك الحنون وتسربت إلى أعماق قلبى ، فقدت القدرة على المقاومة وأخيرًا لم أستطع أن أقاوم رغبات قلبى ..

سوزان : ولكن هذا مستحيل .. يا مسيو طه ..

طـه : أرجوك يا آنسه سوزان أن تفكرى .. ولكن أرجو ألا تفكرى فى العطف على .. أو الشفقة بى .. إننى أحطم قلبى وأدوسه تحت قدمى لو خاطر شعورك هذا الإحساس ، ويكفينى فى هذا الحب أننى أحببتك كثيرًا .. وأحببتك فقط ..

سوزان : أرجوك يا مسيو طه ، أريد أن أنصرف ، لا أستطيع لا أستطيع (تبكى) .

طـه : آنسه سوزان .. آنسه سوزان ..

* * *

يفترقان ، ويعود طه حسين إلى مصر يائسًا والحب يكوى قلبه ، وكان يعد تلك الشهور الثلاثة التى قضاها فى القاهرة .. كان غريبًا بأصح معانى الكلمة وأدقها بين أهله وأصدقائه ، إلى أن عاد إلى باريس ، وهناك علم بمرض سوزان ، فهرع إليها بقلبه الملىء بالحب واللهفة ..

* * *

طـه : لا بأس عليك يا آنسه سوزان ..

سوزان : مرسى .. يا مسيو طه ..

طـه : لم أكن أعلم بمرضك .. إلا عندما وصلت باريس منذ أيام قلائل ..

سوزان : وهل انتهيت من إعداد رسالتك للدكتوراه ؟ .

طـه : فى الحقيقة يا آنسه سوزان .. إننى قد توقفت عن مواصلة العمل فى الرسالة .

سوزان : (بألم) لماذا يا مسيو طـه .. هل حدث شىء ؟ .

طـه : كنت متوعكا .. أحسست أننى فقدت نفسى .

سوزان : لماذا ؟ .

طـه : (بصوت خافت) لأننى قد ابتعدت عنك يا آنسه سوزان .

سوزان : مازلت كما أنت يا مسيو طـه .

طـه : نعم ، مازلت أرجو أن توافقى على خطبتى لك لأننى ..

سوزان : مسيو طـه .. لا داعى لهذا الحديث الآن .. إن والدى ووالدتى قادمان .

وظل طـه يراسل سوزان ، إلى أن دعته لزيارتها فى رسالة أخيرة ، وأحس بالفرحة تغمره ، بل أحس أن العالم كله قد فرح معه .. إنه الفوز ، وهنالك أعلنت خطبة طـه حسين على الآنسة سوزان فى مساء يوم من الأيام وفى صباح اليوم التالى للخطبة قالت الآنسة سوزان : هل تشعر بالسعادة ؟ .

طـه : كل السعادة .. إن الدنيا كلها لا تكاد تسعنى من شدة الفرحة .

سوزان : إذن فأنت تستطيع أن تفعل أى شىء .

طـه : أى شىء .. بكل قوة .

سوزان : هذا عظيم لنبدأ من اللحظة .

طـه : لنبدأ .

سوزان : سنقرأ معًا مقدمة ابن خلدون التى توقفت عندها ، ما رأيك ؟

طـه : مقدمة ابن خلدون .. هذا عظيم .. ولقد اقترب فعلا موعد امتحان الدكتوراه ولكن هذا عمل مرهق بالتأكيد .

سوزان : ولأنه مرهق فإننى أحبه ، لأنك ستكون رجلاً عظيمًا يا مسيو طه .

* * *

كانت قصة حب طه حسين كافية للتعبير عن أخطر مرحلة فى حياته ، لقد ذهب إلى باريس كشاب يبحث فى هذه المدينة الساحرة عن أصول الثقافة الإنسانية ، كان يبحث عن مزيد من الدراسة والعمل الذى يقول عنه : « إنه يرضى القلب الذكى ، ويصنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذًا إلى نفوذ » .

وكان طه حسين يؤمن أن التحصيل والدراسة هما كل حياته ومستقبله ،

وكان شاعره المحبب إليه أبو العلاء المعرى يقف بينه وبين أى رغبة فى مزاولة الحياة كالآخرين ، كان شعار أبى العلاء : « أنت مستطيع بغيرك » .

ولكن الحب هو الذى غير نظرة طه حسين إلى الحياة .. جعله يستطيع بإراداته ، ويقوى بحبه ، فماذا رأى طه حسين فى تشاؤم المعرى إنه يقول : « إن تشاؤم المعرى مصدره العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ، ومن نعيم ولذة » .

لقد كانت قصة حبه لسوزان هى الزاد الذى حمله طه حسين ليبدأ رسالته فى مصر حتى يتيسر التعليم لأبناء مصر ، ويصبح العلم للناس كالهواء والماء ، ولاشك أن قصة حبه كانت ترجمة حية لأبياته الشعرية التى قالها أيام الشباب ، حين قال :

شفى قلبى مـا يعانى   من تباريح الهـوى
يعشق الحسـن لكـن   ليس يحظى بالوصال
أنا من وصـل حبيبى   بـين صد ونـوى
من عذيرى من بخيل   ضن حتى بالخيـال

ومن شعره أيضًا ، الذى يكشف عن حنينه للحظات حلوة مرت فى أفق حياته :

إنماالعذال للحب   وللأحبـاب داء
آه ما أحلى الأمانى   ليت أيامى تعود

ومن المقطوعات النادرة أيضًا التى نظمها طه حسين يقول :

يحسب العـذال أنى همت بالحـب جنونا
لو رأى العذال رأيى فى الهوى ما عذلونى
ولما قالـوا فـلان أجـد المستهترينـا
أنا لا أعطى غرامى أبـدًا كل شئونـى

* * *

ساعة عندى للجد وأخرى للهــزل
فإذا ملت للجـد فمقـــدام أريب
واذا ملت إلى الحب فمـآب للعـذول
هذه جملة أحوالى فهل فيها ذنوب

ومن المفاجآت المذهلة أن لجنة الموسيقى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، عندما كانت تبحث فى أوراق الموسيقار كامل الخلعى تمهيدًا للاحتفال به ، عثرت على إحدى الأغنيات بخط كامل الخلعى وقد كتب عليها من تأليف الشيخ طه حسين حيث كان يقول فيها :

أنا لولاك كنت مـلاك أبكى أنوح بالأشواك
سامحنى
فى العشق أنا مشتـاق أبكى وأنوح بالأشواك
صدقـنى
عهدك فين نـور العـين بالمفتوح تهـوى اثنين
جـاوبنى

واحد بس يهـوى القلب قلبى يبوح لـه بالحب طـاوعنى

أنا أهـواك مين قسـاك أنامجروح غايتى رضاك واصلـنى

ما أحلاك وقت رضـاك تلـوح مـا أبهـاك

وفى كتابات كثيرة للدكتور طه حسين ما يؤكد أن هذا الحب الذى انتهى بالزواج يدين له طه حسين بالكثير من التغييرات التى حدثت فى حياته ، ففى كتابه « جنة الشوك » مثال على نقاء نفسيته فى الحوار الذى دار بين الطالب الفتى وأستاذه الشيخ :

الطالب : إنى أقرأ فى بعض ما يقول نيتشه :إن كثيرًا من الناس لا ينبغى أن تصافحهم بيد رقيقة ، وإنما تبسط إليهم يدًا كبرثن الأسد وأريد أن تكون فيها مخالب حادة ، فمن عسى أن يكون هؤلاء الناس ؟ .

الأستاذ الشيخ : هم أكثر الذين تلقاهم مصبحًا وممسيًا ، فيلحظونك بعيون ملؤها الود ويبتسمون لك من ثغور مشرقة رقيقة ومن ورائها الظلمة والعذاب ، وهم الذين يحسنون التودد إليك والتلطف لك ولاسيما حين تحدث الأحداث وتلم الخطوب .

ولكن نيتشه يابنى صاحب قسوة وسطوة وعنف ، فاقرأ إن شئت قول الله عز وجل :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الشورى الآية ٤٣ .

كم كان طه حسين قوى العزم بالحب ، حين صبر بإباء وشمم على غدر أصدقائه الذين كادوا له فغفر لهم عقوقهم ولم يمس واحدًا منهم بأذى .

وروح الحب عند طه حسين تتمثل فى العديد من أعماله الفنية ، فتراها فى دعاء الكروان ، فى ذلك الصراع بين (آمنة) التى تتردد فى أن تقتل الشاب المهندس الذى اعتدى على أختها « هنادى » ، مما دفع خالها أن يقتلها ويدفنها مع عارها فى حفرة أمام عينيها هى وأمها ، وحاولت أن تنتقم منه وتقتله ، واستطاعت أن تعمل عنده خادمة ، باسم مستعار وهو (سعاد) ، ولكنه وقع فى حبها ، ووقعت هى فى حبه ، ودار صراع عنيف بينهما ، هو ينهار أمامها باكيًا ، وهى تكاد تنسى انتقامها لأختها ، ولذلك تقرر أن تترك البيت ويدور فى نفسها هذا الحوار :

آمنـة : لقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التى تملؤها المطاولة والمحاولة ، فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشىء ، أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنى القوى أن يبلغ منى ما بلغ من أمثالى ؟ أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرعته مرارة الهزيمة وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات العاقلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟ .

الشـاب : أما تزالين هنا يا سعاد ، وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدت ؟ .

آمنــة : أجل .. فارقتنى على ألا تلقانى ، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلى بينى وبين الطريق .

الشــاب : من زعم لك هذا ، لقد كذب الخادم وما أرى إلا أنه حريص على بقائك كاره لفراقك ، ومن يدرى ؟ لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه ، والاتصال به فهو الذى سماك لى ، وهو الذى أنبأنى بمكانك ، وهو الذى جاء بك إلى هذه الدار ، إذن إنى لأحمق لقد خدعنى هذا البستانى ، ولقد اتخذ دارى مسرحًا للهوه وهواه ، فأنت إذن لا تعترضين عنى ولا تمتنعين على إيثارًا للشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف فى سبيل هذا البستانى الذى تهوينه ، وما أشك فى أنه يهواك .

آمنــة : لا بأس عليك ، خل بينى وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أتجمعنى بالبستانى جامعة ، أو تصلنى به صلة ، ولولا أن أشق على مولاى وأكلفه ما لا يتكلفه السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعنى فى القطار وأن يرسلنى إلى أى مدينة شاء .

الشــاب : (فى غيظ) أما تزالين تذكرين السادة والخدم .. فقد علمت منذ حين أنه ليس بيننا سادة ولا خدم .. وأن ما بيننا ما هو أعظم من ذلك وأبعد أثرًا .

آمنــة : وما ذاك ؟ .

الشــاب : هو هذا .

آمنــة : (تصرخ) ابتعد عنى .. ابتعد .. لن تنال منى شيئًا .

* * *

لكن الكبرياء مازالت مسيطرة على آمنة ، تصارع الحب فيها فتصرعه ، ثم سافرت مع الشاب إلى بيته فى القاهرة حيث يعيش مع والده وأمه ، وأصبحت بالنسبة إليه كل حياته ، وكانت الصداقة بينهما غريبة ، أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود ؟ أما سعاد فقد كانت تجد وراء هذه الصداقة حبًا ثائرًا تكتمه ، وكان هذا الكتمان يكلفها من الجهد والمشقة والعناء الكثير ، وذات يوم قال لها الشاب : سعاد .. ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهى إلى غايته ؟ .

آمنــة : وما ذاك ؟ .

الشــاب : هذا الحب الذى اختصمنا فيه وقتًا طويلاً .. وسكتنا عنه وقتًا طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا .. أما ينبغى أن ننهى هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ .

آمنــة : لا أفهم .

الشــاب : إنك تفهمين عنى اليوم ما أريد ، كما فهمت من قبل ما كنت أريد .

آمنــة : (ضاحكة) بل إنى لم أفهم عنك شيئًا .

الشــاب : (ضاحكًا) بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم ، وأنى الآن أريدك على الزواج .

أتقبلين ؟ .

آمنــة : (صوت خافت) إن سيدى يعلم أنه ليس إلى هذا من سبيل .

الشـاب : (يضحك) إنك تظنين أنى أعبث ، وتقدرين ما بينك وبينى من الفرق الاجتماعى .. متى تزوج السيد الغنى من خادمته الفقيرة البائسة ، أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحى نفسك إذن من كل هذه الخواطر ، لقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى لست سيدًا كغيرى من السادة أتقبلين إذن ؟ .

آمنـة : ليس إلى ذلك من سبيل ..

الشـاب : تفكرين فى أبوى .. فإنى فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمرى وما أشك فى أنهما لن يمتنعا على فهل تقبلين ؟ تقبلين ؟ .

آمنـة : ليس إلى ذلك من سبيل .

الشـاب : من حقى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقًا بيننا مستحيل ، وأنى لا علم كما تعلمين أنه ليس لقلبينا رضا إلا فى الزواج ..

آمنـة : لقد قضى على قلبينا ألا يرضيا .

الشـاب : ومن الذى قضى عليهما هذا العذاب المتصل .

آمنـة : لا أستطيع .

الشـاب : ألا تفكرين فى تلك الثورة الجامحة التى شقيت بها وقتًا طويلاً ، أنبئينى من ذا الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ..

آمنـة : أنت الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم .. وأنا التى قضت

علينا هذا العذاب المقيم .. كلانا قضى على صاحبه وما نحن فيه من ألم وشجن .

الشـاب : ما هذا الغموض ؟

آمنـة : خير لنا أن عيش فى هذا الغموض .

الشـاب : أقسم لك أنى لم أعد أستطيع صبرًا على هذه الحياة .

آمنـة : وأنا أيضًا ، لكن ما الذى نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب .

الشـاب : أى قضاء ؟ أريد أن أفهم ، ألم يحن الوقت بعد ؟ .

آمنـة : أحريص أنت على ذلك ؟ .

الشـاب : لابد أن أفهم مهما تكن العاقبة .

آمنـة : إذن ، فلتعلم .

* * *

روت له سعاد كل شىء ، وأنه هو الذى اعتدى على أختها هنادى وتسبب فى قتلها ، وأنها ما جاءت إلى هنا إلا لتنتقم منه من أجل أختها ، ولم تدر أن الحب العارم هو الذى سيهزمها .

أفهمت الآن ، الحقيقة سوف تجعلنا نكره بعضنا ، أتستطيع إذن أن تنظر إلى ؟ .

الشـاب : نعم ، أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع إلا أن أنظر إلا إليك وأنت أتستطيعين أن تنظرى إلى ؟ أمازلت تضمرين الانتقام ؟ .

* * *

كانت نهاية قصة طـه حسين فى الزواج من سوزان هى الرؤية الخاصة عنده للحب ، فمعظم القصص والروايات التى نقلها عن الفرنسية أو التى استوحاها من حياته فى فرنسا ، تدور كلها حول هذا المفهوم الخاص بالنسبة للحب .. أن تلح فى الحب ، وتجاهد فيه حتى تظفر بالمحبوبة ثم ينمو الحب – فى عش الزوجية ، أما ما عدا ذلك فهو إثم وخطيئة ، وفى هذه اللوحة التى سماها « بين الحب والإثم » ، يروى لنا قصة هذه الزوجة التى ترتبط بصديقها كل أسبوع .

كانت أسعد الناس بهذه المواعيد ، تنعم بالتفكير فيها ، والسعى إليها والاستمتاع بما تدخره من لذة وبهجة وأمل ، وكانت أشقى الناس بهذه المواعيد حين تفكر فيما تضطرها إليه من خروج على السنة المألوفة » :

هـى : لم أتأخر ،أليس كذلك ؟ .

هـو : تأخرت خمس دقائق .

هـى : آسفة ، ولكن صورتك لم تفارقنى لحظة ، فبعد أن ذهب زوجى إلى العمل ، وأشرفت على حاجيات الأولاد ، قبل ذهابهم إلى المدرسة ، وأخبرت الطاهى والخادمة بكل ما أريد ، كل هذه الأعمال أتممتها بسرعة ، لأحضر فى موعدنا .

هــو : لا أستطيع أن أناقشك ، دائمًا معك الحجة ، ولكن كل دقيقة تمر وتتأخرين فيها أحس فيها بأنى لن أراك ثانية .

هــى : لا تقل هذا ، أرجوك .

هــو : ربما تغلب عليك شعورك وتأنيب الضمير وأنت ترين أولادك يلتفون حولك ، أو تلتقى نظراتك ، بنظرات زوجك .

هــى : لماذا تقول هذا الكلام ؟ ، إننى معك أنسى وجودى ، ولولا هذه اللحظات التى أقضيها معك لما استطعت أن أعيش فى ذلك السجن الذى أحيا فيه ، سجن الملل والفراغ والضياع .

هــو : ربما تأتى اللحظة التى تشعرين فيها بالملل من لقائنا .

هــى : لا تقل هذا أرجوك ، لقاؤنا هذا هو حياتى .

هــو : وأنا كذلك .

هــى : أرجوك ، دعنا نحيا تلك اللحظات فى سعادة .

وعندما ذهبت إلى لقائه فى الموعد الذى لا يمكن أن تتخلف عنه ، مهما كانت النتائج ، ومهما كانت الظروف لم تجده ، وعرفت بعد ذلك أنها قد تنتظره ساعة وساعة ، وقد تنتظره الليل كله ، وقد تنتظره الدهر كله ، فلن تراه لأنها قرأت نعيه فى تلك الصحيفة التى اشترتها صباح اليوم ،ولكن هذا لا يعفيها من الوفاء بالموعد والسعى إلى اللقاء ، وهل كان هذا النعى الذى قرأته فى الصحيفة صباح اليوم إلا كتابًا من صاحبها ينبئها فيه بأن مكان اللقاء قد تغير لظروف طارئة أقوى منه

ومنها ، وتمر الأيام والأعوام وتتقدم السن بهذه المرأة وتظل متعلقة بذلك اللقاء .

وبين الحب والإثم .. نقلنا طه حسين مرة أخرى إلى عالم الحب الضائع حيث تشابكت العلاقات الإنسانية ، ولعبت الحياة بالقلوب ، فتضطرب دقاتها ولا عرف للراحة سبيلا ،وصور فيها الحب بين الزوج « مكسيم » وصديقة زوجته « لورانس » وبين الزوجة والزوج وبين الزوجة وصديقها يصور لنا فى لقاء « لورانس » ومكسيم أبعاد هذا الحب الضائع :

مكسيم : لورنس ، أخيرًا وجدتك لماذا هربت كل هذه المدة .

لورانس : مكسيم حبيبى ، لا فائدة من الهرب ، هربت من حبك من أجل صديقتى والطفل الصغير ، لقد فتحت لى قلبها وبيتها فكيف أسرق منها زوجها كيف يا مكسيم ؟ .

مكسيم : أنت لم تسرقى شيئًا ، ولكن قدرنا يا لورانس .. إننى أحببتك وقاومتك وقاومت وعندما اختفيت إنهارت مقاومتى وازددت شوقًا إليك ، وبحثت عنك فى كل مكان .

لورانس : ولكن زوجتك تحبك من أعماقها ، أنت وجودها وحياتها .

مكسيم : أعلم هذا يا لورانس .. ولكن ماذا أفعل فيما رسمه لنا القدر ، كنت أعيش معها ، وأنجبت طفلنا وانشغلت به عنى ، فلم أحس

بأى تغيير إلا عندما جئت إلينا ، فجأة أحسست أننى كنت معها بلا حب .

لورانس : مكسيم لا تقل هذا ، إنها لا تستحق منا هذا ، إنها تحبك وتحبنى أيضًا ، فكيف تخونها ؟ وكيف أخونها أنا ؟ .

مكسيم : ولماذا نهذب أنفسنا كل هذا العذاب ، إننا لا نترك أنفسنا للحظة التى نعيش فيها ، إننا كالدمى فى يد الأقدار تتحرك كما تشاء – لا ندرى ماذا نفعل لماذا تهربين وأنت تتعذبين كل لحظة لبعدى عنك ؟ إننى أحبك يا لورانس ... أحبك .

لورانس : مكسيم .. مكسيم .. أرجوك إنك تعذبنى ، ليتك تقتلنى لأستريح ، إن كلماتك تشعل نيران الحب التى أحاول أن أطفئها فى قلبى .

مكسيم : لن تهربى منى بعد الآن يا لورانس .

لورانس : لا أستطيع لا أستطيع يا مكسيم ، أرجوك .

مكسيم : لا تهربى من قلبك يا لورانس مادمت بجوارك تعالى .

لورانس : (باستسلام) مكسيم .. مكسيم .

مكسيم : حبيبتى لورانس ..

* * *

الزوجة : أتصدقنى أيها الدفتر العزيز ، لقد عادت لورانس إلى مكسيم زوجى وغرقا فى الخطيئة ، ولم يعد قلب زوجى خالصًا لى ، وعرف الناس كل شىء ، وقد عرضنى ما ظهر من الأمر إلى أكثر من ألم المرأة

التى يخونها زوجها ، عرضنى لمطمع الطامعين ولألم المرأة التى تهان فى حبها وفى كرامتها ، أأصدق أحلام الليل أم أكذبها أأستجيب لهذه الدعوة التى وجهها إلى زوج (لورانس) أم أمتنع عنها ؟ .

* * *

الزوجة : إلى أين هذه المرة يا مكسيم ، لماذا تعد حقائبك ؟ .

مكسيم : سأسافر الليلة فى مهمة قصيرة ،إنك مثل كل زوجة لا تحب أن يسافر زوجها فى عمل .

الزوجة : ولكن سفرياتك القصيرة كثرت فى الأيام الأخيرة والناس تتحدث بأشياء .

مكسيم : (مستنكرا) الناس تتحدث بأشياء ، ماذا تقصدين ؟ .

الزوجة : مكسيم .. لقد عرفت كل شىء .

مكسيم : أى شىء تقصدين ؟ .

الزوجة : علاقتك بصديقتى لورانس .

مكسيم : ما هذا الكلام الفارغ ؟ .

الزوجة : إنها الحقيقة ، وكلهم يتحدثون عنكما ، وعن سفرياتك القصيرة ، إنكما تلتقيان .

مكسيم : لا أسمح لك أن تتحدثى إلى هكذا ، وعندما سأعود سيكون لى معك حديث آخر .

الزوجة : لا داعى لأى حديث آخر ، إنه آخر حديث لى معك .

مكسيم : ما هذا الكلام ؟ .

الزوجة : إذا سافرت الليلة فلن تجدنى فى البيت .

مكسيم : تقصدين ألا أذهب لإنجاز مهمتى ؟ .

الزوجة : إننى أعلم أنك ذاهب إلى لورانس .

مكسيم : سأسافر .. ولكن لا ينبغى أن تظنى بصديقتك التى تحبك هذه الظنون .

* * *

الزوجة : ماذا تستطيع أن تقدمه لى أيها الكتاب وأنا أكتب فيك هذه السطور ، أتستطيع الكلمات أن ترد إلى هذا الحب الضائع الذى لا سبيل إلى أن يعود ؟ وداعًا لكم أيها الأب الرحيم .. وأيتها الأم العزيزة .. أيها الأخ الكريم وداعًا على كل حال ، ومكسيم .. كلا .. ما ينبغى أن أفكر فى مكسيم وأنت أيها الطفل العزيز ؟ كلا .. ما ينبغى أن أفكر فيك الآن ، وإن كنت لا أجد إلى الانصراف عنك سبيلا .

* * *

أصبح الناس ، وقد قرأوا فى الصحف نعى سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها إلى الموت ، كأنما كانتا على ميعاد ، لأنهما لم يلتقيا فى الحب الضائع .

العقـــــاد



« إنك لا تحب حين تختار
ولا تختار حين تحب ،
وإننا مع القضاء والقدر
حين نولد ،
وحين نحب ،
وحين نموت !! »

عباس محمود العقاد

إن أشقى قلوب العشاق ، هى قلوب الأدباء والفنانين ، لأنها أشد حساسية ، ورقة ، وعذوبة ، من ملاين القلوب ، وهى فى نفس الوقت القوة الدافعة التى تدفع هؤلاء الأدباء إلى أن يسجلوا آلامهم وأفراحهم فى أعمال فنية هى كل عزائهم .. وكل ثروتهم فى حياتنا الفانية . وقد تعذب العقاد كثيرًا بقلبه ، وكانت له مع المرأة أكثر من قصة حب ، وأكثر من قصيدة حب .

* * *

طـاهر : دعك من هذا الحب يا عباس إنه من جانب واحد .. جانبك أنت .

العقاد : لماذا يا طاهر ، ومن الذى أدراك أنه من جانب واحد ؟ .

طـاهر : إن « مى » يحبها الكثيرون ، وقلبها لم يخفق لأحد .

العقاد : إنه خداع النظر يا طاهر ، إن الحب يرينا فتنة الحياة ما لا تراه بغيره .

طـاهر : إنك لا تحبها ولكن تحب جمالها على ما أعتقد ؟ .

العقاد : ماذا تتصور عن الحب ؟ .

طـاهر : أن أفوز بمن أحب ، وينتهى بنا الأمر إلى عش الزوجية .

العقاد : تقصد عش الأرانب ؟ .

طـاهر : من قال هذا ؟ .

العقاد : أنت وكل الناس ، ومعظمهم يعيشون فى هذه الحجور بلا حب .

طـاهر : أى حب تقصد ؟ .

العقاد : حب اندفاع الجسد إلى الجسد ، واندفاع الروح إلى الروح .

طـاهر : هذا لا يهم يا عباس ، قد يأتى الحب بعد ذلك فى عش الزواج .

العقاد : هكذا يقول الملايين ، لكننى أرى غير ذلك يا طاهر .

طـاهر : ماذا ترى فى الحب إذن ؟ .

العقاد : إنك لا تحب حين تختار ، ولا تختار حين تحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد ، وحين نحب ، وحين نموت .

طـاهر : إننى لا أختلف معك فى هذا ، ولكن العشق وحده لا يكفى .

العقاد : بل يكفى .. ويكفى .. اسمع ما قلته عندما يعشق المرء ، وماذا يتمنى :

ياليت لى ألف قلب   تغنيك عن كل قلب
وليت لى ألـف عين   تراك من كل صوب

لقد عرف قلب العقاد طريقه إلى الحب فى الثلاثين من عمره ، كان أديبًا شابًا وسيمًا ، لمع اسمه فى عالم الصحافة والأدب ، وكانت محبوبته

هى الأخرى أديبة شابة ، جذبت إليها عشرات القلوب من الأدباء والشعراء والفنانين هى « مى » أو مارى إلياس زيادة » ، وكان عباس العقاد و « مى » يلتقيان سرًّا فى حديقة إحدى الكنائس بحى الظاهر بالقاهرة بعيدًا عن العيون ، ويتحدثان :

مـى : إياك وأن تسافر إلى أسوان مرة ثانية يا عباس .

العقاد : هل هذا أمر ؟ .

مـى : بل رجاء .

العقاد : ولماذا كنت بعيدة عنى ؟ .

مـى : لم يحدث مطلقًا .

العقاد : وكل الذين يحضرون صالونك ، لماذا يحضرون ؟ ، إن كل واحد منهم يعتقد أنك تحبينه يا مى .

مـى : إنهم يعتقدون .

العقاد : لاشك أنك تحبين ذلك ؟ .

مـى : هل جئنا هنا لهذا النقاش ؟ .

العقاد : لماذا إذن ؟ .

مـى : لأقول لك : أن قلمك سيودى بك إلى السجن .

العقاد : لماذا ؟ .

مـى : لأنك تهاجم إسماعيل صدقى ، وثروت والحكومة بجنون .

العقاد : وماذا يغضبك فى هذا ، ألست على حق ؟ .

مـى : أى حق ، إنهم سيقذفون بك فى السجن .

العقاد : ونعم بالسجن .

مـى : عباس ، أرجوك لا تهاجم الحكومة هكذا .. إنهم يستطيعون أن يفعلوا بك كل شىء .

العقاد : أيهمك أمرى يامى ؟ .

مـى : أنت تعرف يا مجنون ماذا يحدث لى لو سجنوك .

العقاد : هل ستحزنين ؟ .

مـى : بل أتألم وأفقد روحى .

العقاد : لم أعتقد أننى عزيز عليك .

مـى : إنك أبى وأمى .. وأخى وصديقى .. أنا لا أخ لى ولا صديق ، إننى فى حاجة إلى عطفك وحنانك ، إنك الوحيد الذى سأبكى أمامه إذا ضاقت بى الدنيا .

العقاد : أنت غريبة يا مى .

مـى : لماذا ؟ .

العقاد : أصادقة أنت فيما تقولين ؟ .

مـى : كل الصدق ، لأن قلبى هو الذى يتكلم ، سأتعمد أن أخطىء .

العقاد : لماذا ؟ .

مـى : لأفوز بسخطك على .. فأتوب على يدك .

العقاد : إنك تعرفين يا مى إلى أى حد أحبك .

مـى : لا تقل أكثر من ذلك ، إننى وأنت معى سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك .

العقاد : لا أجد الكلمات على شفتى لأعبر بها .

مـى : هيا بنا لقد تأخرت .

* * *

* وفى صيف ١٩٢٥ ، تسافر تلك المحبوبة إلى إيطاليا ، وتبعث للعقاد برسالة طويلة ، تصف له كل شىء رأته ، وخاصة ينابيع روما ، أودعت فيها عواطفها المشبوبة التى تنم عن الحب المكبوت ، وخلال غيابه عن مصر تحضر « مى » من رحلتها ، فيقرأ العقاد عن وصولها بالصحف ، فكتب إليها من أرض لبنان التى قضت بها سنوات صباها قائلا :

العقاد :

غريبة الـدار عند النيل تذكـرة	من دامق فى ربى لبنـــان مغترب
يا بنت لبنـان أقريك التحية من	هضاب لبنان بين البحـر والشهب
فأنت لبنـان فى زهـر وفى ثمر	وأنت لبنان فى مـــاء وفى عشب

* * *

• قد لعبت « مى » أخطر دور فى حياة العقاد ، لأنها أعطته من السعادة ما لم يكن يخطر له بال ، إلا أنها وقفت أمامه ندًّا لند ، وناوأت رجولته وسطوته وكبرياءه .. وأصبحت مصدر وحيه وإلهامه ... يقول العقاد :

أعروس أحلامى وملهتى معنى الحياة وفتنة السحر
كونى إذا ماشئت مفعمة حوريتى فى مقبل العمر

* * *

طاهر : ماذا تفعل يا عباس ؟

العقاد : كما ترى يا مولانا .

طاهر : كتابة ، كتابة ، منذ سافرت « مى » إلى روما وأنت لا تهمد من الكتابة ، لابد أن تستريح .

العقاد : لقد وحشتنى مى يا طاهر ، إنها فى ذهنى ، وفى عينى فى كل لحظة .

طاهر : لقد وقع الليث فى حبائل الحب .

العقاد : فى الحب لا يوجد ليث ولا فأر .

طاهر : أعتقد أن حبك هو حب الروح للروح .

العقاد : لا داعى للسخرية ، سمه بما تشاء .

طاهر : ماذا كتبت لها اليوم .

العقاد : قصيدة بعنوان : « إلى مى .. فى روما » .

طـاهر : أسمعنى .

العقاد : قلت فى الجزء الأخير :

قَبِّلَتى يا «مى» فى ذاك الحمى	أنت ، لا القبلة فى ذاك البنـاء
ورجائى اليـــوم فى مغربهـا	وجهك الباسم لا وجه ذكـاء
أرقب الليـل إذا الليــل سجا	فلنا فيـه على البعــد لقـاء
وأرود الشعر فى مثل الكـرى	فإذا فيــه من القلـب عـزاء
أنت يا«مى» وهل أنت سـوى	حلم فى يقظة القلب أضـاء ؟

طـاهر : رائع رائع ، والله يا عباس قطعة من قلبك ، اكتب عليها التاريخ ٧ يوليو سنة ١٩٢٥ .

** وتلقت « مى » هذه الأبيات ،فبعثت إليه برسالة صريحة عبرت فيها عما تشعر به من حب وهيام ، ختمتها بقولها : « لقد أعجبتنى أبياتك .. وأبكتنى » .

وعلى الفور كتب إليها العقاد رسالة مطولة قال فيها : « سيدتى الآنسة « مى » : (شكرك لى على الأبيات التى تفضلت بقبولها نعمة من نعم السماء ، وابتسامة فى فم الحية ، أتمنى لك من السعادة بقدر ما بعثته فى نفسى ، وإذا سمحت فى أن أخطر ببالك وأنت هناك سارحة الطرف أمام آية من آيات العبقرية ، إذا سمحت لطيفى أن يقف إلى جانبك هنيهة فى بقعة من تلك البقاع ، فذلك أسعد لى ألف مرة من أن أراها بعينى

وألمسها بيدى ، لأن « مى » قد وقفت عند هذا الأثر أو ذاك .. وأرتنيه قبل أن أراه بعينى) .

* * *

طـاهر : لقد عادت « مى » منذ مدة .. لماذا لم تذهب إلى صالونها ؟ .

العقاد : لا أستطيع .

طـاهر : لا تستطيع ؟ .. إننى لا أفهم ماذا تقصد ؟ .

العقاد : كثيرون ذهبوا إليها ، ولن أكون واحدًا منهم .

طـاهر : هل تظن أنها ستحضر إليك لتخبرك بمجيئها ، أم أنك مشغول بسارة هذه الأيام .

العقاد : طاهر أرجوك ، لا تخلط الأمور ببعضها ، ما وجه المقارنة بين « مى وسارة » .

طـاهر : ولماذا لا تذهب إلى « مى » وهى فعلا فى حاجة إليك .

العقاد : كيف ؟ .

طـاهر : سمعت أنها وقعت فى ضائقة مالية .

العقاد : سأذهب إليها من أجل هذا فقط .

طـاهر : ما هذا التحول ؟ .

العقاد : لا شيء قد حدث ، ولكنها ستكون الآن مشغولة بالآخرين ويصالونها ، ولذلك فإننى أنتظر حتى تهدأ نفسها .

طـاهر : أعرف أنك شهم ولا تتخلى عنها .

العقاد : سأرسل لها أيضًا صديقى المحامى ليتولى شئونها القانونية ، سأذهب إليه .

** وشعرت « مى » بأن النساء تحولن عند العقاد إلى امرأة لها شأن آخر فزارته فجأة فى مكتبه بصحيفة البلاغ ، وهى الزيارة الأولى والأخيرة من ناحيتها .

العقاد : (بدهشة) مى ، أهلا ،أهلا ، مفاجأة أن أراك هنا ، هل حدث شيء ما يا مى ، تفضلى ، تفضلى .

مـى : (باقتضاب) لست زائرة ولا سائلة .

العقاد : إذن ..

مـى : لا تتكلم .

العقاد : (بألم) تبكين ؟ تبكين يا مى ، دموعك غالية ، يدك أقبلها .

مـى : (هامسة) دع يدى ودعنى .

العقاد : هكذا تنصرفين بسرعة ؟ مى .. مى ..

فهاجت نفسه وزاد شجنه فكتب قصيدة منها :

تبكين .. والهف الفـؤاد يذيبه ذاك الحنـين يذوب فى خديك

أيـراك باكيـة وأنت ضيـاؤه ونعيـم عيشـى كلـه بيديك

وعزيـزة تلك الدمـوع فليتها يقتو قطيراتهـا نظيـم سليك

لملأت ثَمَّ يدى بأكـرم جوهـــر   من عطف قلبك فاض من عينيك

** وفارقت « مى » دنيا الأحياء عام ١٩٤١ ، غدت ذكرى على كل شفاه ، لكن العقاد لم ينس تلك الذكرى ، فقد وقف وهو فى الستين من عمره بدار الاتحاد النسائى بالقاهرة يرثى تلك المحبوبة فى حفل تأبينها فقال :

تلكموا الطلعةمازلت أراها   غضة تنشر ألــوان حلاها

بينآراء أضـاءت فى سناها   وفروع تتهادى فى دجاها

ثم شاب الفرع والأصل وغاب

* * *

** ليس غريبًا أن يكون للمحبوبة الأولى « مى » فى حياة العقاد بداية الحياة مع أخرى من بنات جنسها ، وقصة حب جديدة ، فالموت سر من أسرار الكون وكذلك أيضًا الحب .

ويصف العقاد بداية قصته مع أليس أو « سارة » كما عرفت ، وخلدها فى قصته قائلا :

(لم يقصد همام أن يلتقى بسارة ، ولم تقصد سارة أن تلتقى بهمام ، وإنما جاء اللقاء كما تجىء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير من زواج وفراق ورحلة واختيار ، واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضًا لا يمهد له بتفكير) .

** وذات يوم خرج العقاد يتمشى فى مصر الجديدة حيث كان

يسكن ، ووجد نفسه على مقربة من مسكن صديقه الأستاذ أحمد صبرى السربونى ، الذى أسماه العقاد فى قصته « سارة » باسم « الأستاذ زاهر » وكان يسكن فى بنسيون (ماريانا) فدخل يسأل عن صاحبه :

العقاد : صباح الخير يا مدام ، أين زاهر ؟

ماريانا : صباح الخير ،أولا نراك إلا زائرًا لزاهر ، إنه خرج منذ فترة وسيعود بعد قليل .

العقاد : إنك تطعمين الديكة الرومية يا مدام بعناية ، وتقدمين لها مكرونة ، لابد أن الديكة إيطالية وليست رومية .

سارة : إن كان الجنس بالطعام ، فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس مصرية إن أكلت الفول المدمس ، وإنجليزية إن أكلت البطاطس ، وهندية إن صبرت على الصيام .

ماريانا : ما هذا يا سارة ، إنها تداعبك يا أستاذ .

العقاد : إن الآنسة تعرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها فى الوطنية ، ولكنى لا أذكر أننى رأيتك هنا يا آنسه قبل الآن .

سارة : (بامتعاض) ولماذا تدعونى بآنسة ؟ أتستصغرنى ؟ إننى ربة بيت ، أم .

العقاد : ولكن السيدات يا آنسة يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج فأين هذه العلامة ؟ .

سارة : لذلك شرح يطول .

العقاد : عسى أن أسمعه فى وقت قريب .

ســارة : وهل أنت متزوج ؟

العقاد : لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا .

ســارة : أصحيح ؟ لقد أراحك الله .. فبأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ..

العقاد : لذلك شرح يطول .

ســارة : يالك من منتقم ، ولكن تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان ، فإننى لا أكلفك عناء هذا الشرح ، لست فضولية بحمد الله .

العقاد : وإذا كنت أنا فضوليًا ؟ .

ســارة : إذن يختلف الأمر .

العقاد : كيف يختلف ؟ .

ســارة : يلوح لى أنك كما وصفت نفسك أنت فضولى ولا فخر .

العقاد : ليس مع كل الناس .

ســارة : تحيات وغزل ، وعما قريب عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، إلى آخر هذا الموال المحفوظ .

العقاد : ولماذا عما قريب ، الآن .

ســارة : أنت عجول وجرىء أيضًا .

العقاد : إن وعدتني أن أجنى للصبر ثمرة ، فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئًا ، وأنصرف الآن .

سـارة : وصاحبك الذى تسأل عنه ؟ .

العقاد : ها .. يلوح لى أننى أعجبتك ، وأنك تستبقينى .

سـارة : لولا أنك تمزح لقلت إنك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال ، لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه .

العقاد : أو يحسب أنه مجنون بهواها .

سـارة : طيب والله ، لقد قطعنا شوطًا بعيدًا جدًّا فى نصف ساعة ، ولا أدرى أين اختفت ماريانا سامحها الله ، أين ذهبت وتركتنا ، ألعلك على اتفاق معها أن تهيئ هذا اللقاء ؟ ما فى ذلك من عجب .

ماريانا : (من بعيد) ماذا تقولين عنى يا سارة ؟ .

العقاد : إنها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذا الدجاج .

ماريانا : أنا أعلم على الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة .

سـارة : قاتلك الله يا عجوز السوء أما كان الأولى أن تتمهلى لحظة ، لعلى كنت أنوى أن أشكرك على ما صنعت .

العقاد : بل دعى لى أنا أن أشكرها ، إننى أقبل وجنتيها .

ماريانا : يا إلهى .. (تقهقه) .

العقاد : وأقبل الآنسة أيضًا إكراما لماريانا .

ماريانا : (تضحك) فرصة ، لا مكان لى هنا .

العقاد : أرجو ألا تغضبى .

سـارة : (فى صوت خافت) لقد آذانى شاربك الطويل ، عن إذنك .

العقاد : ما معنى هذا يا ماريانا ؟ .

ماريانا : لا عليك منها ، إنها ستعود يوما لا محالة .

العقاد : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هى غاضبة ؟ .

ماريانا : مم تغضب ، أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا ؟ .

العقاد : خيبة الله عليك يا عزيزتى ماريانا ، دعينا من غضبك أنت ورضاك ، فإنها هى القبلة الأولى والأخيرة ، ولئن رضيت عنها فما أنا براض ، ولكن الذى يعنينى ألا تكون قبلتها هى القبلة الأولى والأخيرة ، فما رأيك ؟ .

ماريانا : ابحث عن مستشار غيرى ، إننى أفهم فى الخياطة فقط ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأة .

* * *

وفى المساء من نفس ذلك اليوم دق جرس التليفون فى بيت العقاد .

العقاد : ألو ، من ؟ .

سـارة : (بدلال) ألا تعرفنى ؟ .

العقاد : عرفتك الآن .. أنت سارة .

سـارة : أو كنت تنتظر هذه المحادثة ؟ .

العقاد : لا أزعم أننى كنت أنتظرها ولكنى أحسب أننى كنت أتمناها .

سـارة : إذن هل تحب أن نلتقى الليلة فى السينما بمصر الجديدة .

العقاد : بل أفضل أن نلتقى على انفراد ، فذلك أسلم وأمتع .

سـارة : أنا أدعوك لرؤية هذا الفيلم لأن قصته تشبه قصة حياتى .

العقاد : أفضل أن أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات .

سـارة : فأين إذن ؟

العقاد : ما رأيك فى حديقة الأهرام ، إنها مكان قلما يغشاه أحد فى هذه الآونة ، وسنلتقي في زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين .

* * *

التقينا ..

التقينا ..

عجبًا كيف صحونا ذات يوم فالتقينا

بعد ما فرق قطــران وجيشان يدينا

فتصافحنـا بجسمينا وعدنـا فالتقينا

سـارة : لابد أنك حسبتنى مجنونة ، وقلت لنفسك ما هذه الرعناء التى تقبل التقبيل ثم تخرج غاضبه ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثم تحضر إلى هذا اللقاء ،فماذا حسبتنى بربك ؟ قل لى ولا تكذب .

العقاد : على كل حال لست بآسف لجنونك .

سـارة : وأنت يا حضرة العاقل اللبيب ، أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجى بهذه الطريقة المفاجئة قبل أن ترمينى بالجنون ؟ .

العقاد : أكنت تخشين ماريانا ؟ .

سـارة : هو ذاك ، لو عرفت ما بيننا لوقعت فى مخالبها .

العقاد : لقد ظلمتك فعلا .

سـارة : الحقيقة أننى مظلومة فى حياتى وخصوصًا فى الزواج ، لقد جنى على أهلى ، فقدت رحمة الأم ، كانت أمى قاسية على ، تزوجت فى العشرين من رجل فى الخمسين ، فلم أسترح فى زواجى ، كان ثريًا ، ولكن هل الثراء كل شىء ؟ لو تزوجت رجلا يملأ عينى لقنعت بقسمتى ، ولكنى وجدت قلبى خاويًا من كل شىء ، هذه قصتى فاحكم على .

العقاد : تطلبين منى الحكم ، أنا حاكم مغرض لا تنفعك شهادتى ، لكن قليل من ينصفونك .

سـارة : أنا لست فى حاجة إلى إنصاف الدنيا .

العقاد :

لك وجـــه كأنه طابـــع الصدْ　　　قِ على صفحة الزمان المَلُوفِ
إن يومـًا يمـــر بـــى لا أراه　　　هو يـــوم أعده فى الزيوف

** وعاش العقاد مع سارة أجمل قصة حب ، وارتشف معها كل رحيق الحب حتى الثمالة .. لقد ملأت قلبه بكل ما هو جميل ولكن الأيام تمر ، وكان هو فى العقد الرابع ، فازداد حبه لها من شدة الألفة ثم المتعة ، ثم التفاهم إلى درجة الاتفاق على الأمور ، وإلى الإختلاف فى الأمور الأخرى ، ولكن سارة سافرت إلى مصيفها فى لبنان ، وهناك أخطات وعادت لتروى للعقاد زلتها ، وقالت له : لقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندى ، وليس لى حق عندك وأنا لا أحاسبك على شطحاتك فى مصيفك إن كانت لك شطحات ، ولكنى أسمح لك أن تحاسبنى على الصغيرة والكبيرة فهل تقبلنى ؟ .

العقاد : لا أستطيع أن أجيبك الآن ، دعينى أخلو لنفسى .

* * *

يعبر العقاد عن مأساة قلبه فى هذه الأبيات الحزينة :

يوم الظنـون فقدت فيك تجلدى　　　وحملت فيك الضيم مغلـول اليد
وبكيت كالطفـل الذَّليل أنا الذى　　　مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالمـــاء الذى أعددتـه　　　للـرى فى قفـــر الحيـــاة المجهد

ويتعذب العقاد لهذه الخيانة التى طعنت قلبه فى الصميم ، فيأبى قلبه أن يهدأ ، ولا يجد إلا أبياته الحزينة ملاذًا له فيقول :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وأرتـاد فيك اللهـو بعد التعبد
وألقـاك جسمًا مستباحـًا وطالما
لقيتك جـم الخوف جـم التردد
رويـدك إنـى لا أراك مـليئة
بلذة جثمـان ولا طيب مشهـد
جمالك سم فى الضلـوع وعثرة
ترد مهـاد الصفو غير شهـد
إذا لم يكن بد من الحسـان والطلى
ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

ويحاول العقاد جاهدًا أن ينسى حبه الذى قتلته الخيانة ، فيغرق نفسه فى دوامات أبياته الشعرية التى عبرت عن أعمق فترة حزن مر بها فى حياته فيقول :

ظمآن ظمآن لاصوب الغمام ولا   عذب المـدام ولا الأنداء ترويني
أسوان أسوان لا طب الأساة ولا   سحر الرقـاة من اللأواء يشفيني
أصاحبَ الدهر لاقلب فيسعدني   على الزمـان ولا خـل فيأسوني
يديك فامح ضني يا موت فى كبدى   فلست تمحوه إلا حين تمحوني

ويسدل الستار على أروع قصة حب عاشها العقاد.. ولكنه يجد نفسه بعد ذلك فى أحضان حب من نوع جديد ، لفتاة سمراء حقبة من الزمن ، وكان هو قد جاوز الخمسين ، وهى كانت فى العشرين وقال فيها :

يا فتاتى

يا حياتى

لا تراعى بعد هذا من فراق أو فوات

قدر الله كفيل لك فى ماض وآت

كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا

لقد عاش العقد مع قلبه قصص الحب تلك إلى أن تبلورت رؤيته فى الحب ، فى تلك الكلمات التى قالها :

إنك لا تحب حين تختار

ولا تختار حين تحب

وإننا مع القضاء القدر

حين نولد

وحين نحب

وحين نموت ..

محمود تيمور



« الحب . . . ينبغى أن يملأ حياتنا . . إنه الروح الدافعة للإنسان .. للعمل .. والحق .. والإبتكار .. فإذا انعدمت هذه الروح ..
فقدت الحياة أهميتها »

محمود تيمور

•• كتب كثيرًا عن الحب فى أقاصيصه ، ورواياته « نداء المجهول » و « إلى اللقاء أيها الحب » و « المصابيح الزرق » وغيرها ، فكيف عاش محمود تيمور شيخ القصة المصرية مع الحب ؟ ، وما هى رؤيته عن الحب فى حياته وفى أعماله ؟ .

يروى لنا تيمور حبه قائلا :

« نحن الآن فى عام ١٩٢٠ جاءنى والدى وأخبرنى بأنه أختار لى عروسًا لم أرها ، فرسمت لها فى خيالى صورة رائعة ، وفى يوم كتب الكتاب .. رأيتها وتحدثت إليها لأول مرة ، فوجدتها أجمل وأرق من الصورة التى رسمتها فى خيالى بكثير ، ثم إلتقيت بها ، وكانت هذه الفترة هى فترة اختبار للحب الذى عشته بكل عواطفى وكيانى طول عمرى ، وتزوجتها ، وأحسست أنها حبى الأول والأخير ، وبعدها ختمت قلبى بالشمع الأحمر ، ولم أحب سواها » .

واستمد تيمور من هذا الحب الذى عاشه صورًا مختلفة للحب .. فى معظم أعماله الأدبية ، ففى قصته « بنت الشيطان » صور فيها محاولة شيخ الشياطين فى أن يثبت للعالم بأنه أهل لغير الشر ، لأن الإنسان قد غلبه فى إفساد العالم ، فخطف مولودة من أحد الأكواخ ،ووضعها فى مكان سرى مع مربية من الشياطين لتعلمها كل ما هو جميل وخير وحلو ، واحتاط لكل شىء إلا هذا الشىء السحرى الذى نسيه ألا وهو الحب ،

فقد علم بمكان « بنت الشيطان » أحد الأمراء .. فاحتال الأمير بكل الوسائل إلى أن وصل إليها ، ودار بينهما هذا الحوار :

بنت الشيطان : وكيف يمكن الجمع بين المرأة والرجل وهما مختلفان ؟ .

الأمـــير : إن الذى يجمع بينهما هو الحب .

بنت الشيطان : الحب ، ما هو ؟ .

الأمـــير : هو امتزاج بين عنصرين .

بنت الشيطان : أخيرًا هو ؟ .

الأمـــير : بل شر جميل .

بنت الشيطان : شر جميل ؟ كيف يتحد الضدان ؟ .

الأمـــير : كيف ؟! سترين .

بنت الشيطان : ماذا تفعل ؟ .

الأمـــير : أجرح يدى بهذه السكين .

بنت الشيطان : ما هذا ؟ .

الأمـــير : إنه دمى .

بنت الشيطان : لماذا تفعل هذا ؟ .

الأمـــير : سترين ؟ حاولى أن تذوقى دمى ، اقتربى .

بنت الشيطان : (تتذوق) ليس طيبًا .

الأمـــير : أعرف أنه كريه المذاق .

بنت الشيطان : ماذا تفعل أيضا ؟ .

الأمـــير : أمزج قطرات دمى بعصير الفاكهة هذا فى هذا الوعاء ، والآن اشربى .

بنت الشيطان : إنــه ..

الأمـــير : أليس من السهل أن يتحد الضدان ويكونا مزيجًا عجيبًا ؟ .

بنت الشيطان : إنه مزاج لطيف ..

الأمـــير : والآن .. أقبلك .

بنت الشيطان : ما هذا ؟ .

الأمـــير : أمن الخير هذا أم من الشر ؟ .

بنت الشيطان : لا أدرى ولماذا فعلت هذا ؟ .

الأمـــير : لكى أصل بين روحى وروحك فترة من الزمن .

●● إنها نظرة تيمور للشىء وضده ، ومن هذا الأضداد نتذوق الحياة ، حياة البشر ، والذى يجعلها جميلة ونصبر على متاعبها شىء اسمه الحب ، هذا الحب صوَّره تيمور فى أروع أعماله الأدبية (نداء المجهول) حيث صور فيها قصة امرأة جرح قلبها فى قصة حب فاعتزلت الناس وسافرت إلى لبنان ليلتئم جرحها ، ولكنها سمعت بحكاية حب « يترنم بها الناس فى جبل لبنان بين « صفاء » ويوسف الصافى ، والذى حالت الظروف دون أن يرتبطا معًا بالزواج » .

يوسف : صفاء ، صفاء .

صفاء : يوسف .

يوسف : اشتقت إليك كثيرًا .

صفاء : وأنت كذلك ، كانت صورتك فى عينى لم تغب لحظة .

يوسف : لقد انتظرتك فى هذا المكان ثلاثة أيام .

صفاء : يا حبيبى .

يوسف : إنى لا أصدق عينى .

صفاء : أنا أمامك يا حبيبى وسأظل إلى الأبد ، لابد أن قلبك جعلك تحس بما جرى .

يوسف : ماذا جرى يا صفاء ؟ .

صفاء : (تبكى) .

يوسف : أنت تبكين ، ماذا حدث ؟ .

صفاء : يريدون أن أتزوج من رجل غريب .

يوسف : رجل غريب غيرى ، من ؟ .

صفاء : لا أعرف ، أمى قالت إن والدى قد اتفق مع العريس وحدد موعد الزفاف .

يوسف : متى ؟ .

صفاء : عندما يطلع الهلال .

يوسف : يعنى بعد أيام قليلة .

صفاء : ما العمل يا يوسف ؟ ماذا ستفعل ، لا أستطيع أن أحيا بدونك لا أستطيع ، لا أستطيع ، (تبكى) .

يوسف : لن يأخذك أى إنسان منى يا صفاء مهما حدث .

صفاء : هيا بنا نهرب .

يوسف : أستطيع أن أهرب بك يا صفاء ، ولكن لا أريد أن يقولوا عنى أننى جبان .

صفاء : إنك لست جبانًا يا يوسف ، إنك لم تخطفنى ، إننى ذاهبة معك برغبتى .

يوسف : لابد أن أطلبك من أبيك .

صفاء : ألم يرفض طلبك فى المرة السابقة ؟ .

يوسف : سأتحمل هذا من أجلك .

صفاء : ولو رفض مرى أخرى ؟ .

يوسف : عندئذ نفكر فى طريقة أخرى .

صفاء : يوسف ، إننى لا أستطيع أن أحيا بدونك ، لا تتركنى .

يوسف : لا تخافى يا صفاء ، إننى بجوارك ، قلت لك لن يأخذك أحد منى .

صفاء : (تبكى) .

يوسف : لا أريد أن أرى دموعك يا صفاء .

صفاء : لا أستطيع ، لا أستطيع .

يوسف : لابد أن تبتسمى وأنت معى هكذا ، لابد أن أرى عينيك الجميلتين والابتسامة على شفتيك ، أريدك دائما فرحة وأنت معى .

صفاء : يا حبيبى !! .

** ولكن الأب رفض أن يزوج صفاء ليوسف ، ولم يستطع العاشقان أن يلتقيا فقررا أن يلتقيا فى السماء حيث الصفاء والحب ، وفى ليلة زفافها ظهر يوسف الصافى ، وأطلق عليها الرصاص ولكنه لم يستطع أن يطلق الرصاص على نفسه وهرب إلى الجبال ، وحبس نفسه فى قصر مهجور يعذب نفسه ، لأنه لم ينفذ بقية الوعد ، وقررت « إيفانس » بطلة « نداء المجهول » أن تقوم برحلة لاكتشاف هذا القصر المجهول وعثروا عليه وعلى يوسف الصافى الذى تركوه وبدأوا فى العودة ، وعندما استيقظ الأستاذ محمود لم يجد مس إيفانس فهرع إلى الشيخ عاد يسأله :

محمود : أين مس إيفانس ؟

عاد : رجعت هناك للقصر ، هل فهمت الآن ؟ .

محمود : غير معقول ، غير معقول .

عاد : لماذا ؟ .

محمود : إننى لا أصدق .

عاد : إننى كنت أعتقد أنك ستتوقع الذى حدث .

محمود : وكيف أعرف ؟ .

عـاد : عندك حق .

محمود : ماذا تعنى ؟ .

عـاد : يعنى .. يظهر أنك انجذبت لمس إيفانس .. فأخفت عواطفها الحقيقة عنك .

محمود : وكيف ترجع إلى هناك ؟ .

عـاد : لأنها وجدت النداء الذى كانت تبحث عنه .

محمود : نـداء .

عـاد : طبعًا ، عندما يصدم الإنسان من أى شىء .. فى حب .. فى مشروع مثلا .. عندئذ يحاول أن يحققه فى عالم غريب .. عالم مجهول .. يحققه لنفسه فى هذا العالم المجهول وعالم المرأة .. عالم لا تحده حدود ، والمرأة إذا أحبت يذوب العالم أمامها ويتحول إلى صورة حبيبها .

محمود : لا أفهم شيئًا من هذا الكلام ، لا أفهم .. لا أفهم .

عـاد : أقول لك بصراحة يا أستاذ محمود .

محمود : قـل .

عـاد : مس إيفانس .. كأى امرأة كانت تبحث عن الشىء الذى يحقق لها أمانيها بعد ما صدمت فى قلبها فى الحياة الواقعية فعاشت دائما تبحث عن هذا الشىء فى مكان ، فى صورة ، فى حكاية ، فى كلمة ، ولو كان فى حكاية القصر المسحور .

محمود : وبعد ذلك ؟ .

عـاد : وجدت فى حكاية القصر المسحور الخيط الذى ربطها بالنداء الذى كانت تبحث عنه .

محمود : قصدك يوسف الصافى ، لكنه مجنون .

عـاد : رجعنا مرة أخرى للحكاية .

محمود : أى حكاية ؟ .

عـاد : ألم تقل إن الذى تعتبره تافهًا .. يعتبره شخص آخر أعظم شىء فى الدنيا ، والمرأة إذا أحب قلبها كان حبيبها هو العالم .

محمود : لكن مس إيفانس .

عـاد : مس إيفانس وجدت النداء الذى كانت تبحث عنه ، نداء المجهول ، وكل إنسان منا يجرى وراء النداء المجهول الذى قسم له ، هل فهمت ؟ .

•• كل منا حقيقة .. يبحث عن النداء المجهول الذى يجعله يستمر فى هذه الحياة ، إنه نداء الحب ، هذا الحب الذى يراه تيمور بعد حياته الأدبية العميقة فى تلك الكلمات .

« الحب .. ينبغى أن يملأ حياتنا
إنه الروح الدافعة للإنسان
للعمل .. والخلق .. والابتكار
ودفع عجلة الحضارة إلى الأمام ..

فإذا انعدمت هذه الروح ..
فقدت الحياة أهميتها ، وأصبحت بلا معنى
بلا هدف ، بلا غاية
وعندئذ .. يصل الإنسان إلى حالة العدم ، حالة التوقف ، أى الموت !! » .

توفيق الحكيم



* إن الحب قصة لا يجب أن تنتهى ، وجوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » وبموت الحب فى الأرض .. ينتهى العالم .. » .

توفيق الحكيم

** إن الحب مع توفيق الحكيم له قصص وحكايات ، فقد عاش الحكيم الحب الهادىء ، والحب الحارق ، والحب المحروم ، والحب الملهم لفنه ، وفكره ، وأدبه ، أما الآن فهو كما يقول : يعيش الحب المسلوق .. لكن رؤية الحكيم للحب التى تبلورت خلال حياته وفنه ، لم تتضح إلا بعد أن عاش لحظات حرمان طويلة أيام الطفولة .

فقد كانت والدته – وهى تركية الأصل – ذات شخصية قوية عنيفة أشبه بالبركان الثائر ، وكانت قد تميزت أيضًا بقدر غير قليل من العناد وحب التفاخر والتعالى على الآخرين ، مما دفع الحكيم إلى عدم الاقتراب من والدته فلاذ بكهف الانطواء والعزلة ، وازداد تمسكه بهذا الكهف بعد قدوم أخيه الصغير « زهير » ، فقد استأثر القادم الحديث باهتمام الأم وحبها ، فراح الحكيم يبحث عن الحب فى كل مكان وعن ذلك يقول :

« إنى أحب الحب ، وإن للحب مقامًا كبيرا عندى فى الحياة ، فى كل حياة ، وربما كان الحب هو الشىء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر » .

آه ، لو كان القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة ، وجعلنى أجد أحدًا يحبنى ولو مرة واحدة .

إن الذى لا يعرف ولا يستطيع أن يحب إنسانًا لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الإنسانية .

•• ولعل الحرمان العاطفى الذى عاناه الحكيم فى طفولته هو الذى دفعه إلى التعلق بالأسطى حميدة المطربة والراقصة الشعبية بالإسكندرية تعلقًا شديدًا ، كتعويض لفشل علاقته العاطفية بأمه .

فكان يلازمها طوال إقامتها عند زيارتهم ، وكان يلح فى مصاحبتها إلى الأفراح التى تحييها ، ويحرص على الاندماج فى التخت ، وقد صور عاطفته نحوها فى حفل زفاف شهده معها فى روايته « عودة الروح » :

– يا سلام ع الرقص اللى ما فيش منه ..ملبن بيرقص .. والله .

– الله أكبر .. ياليلة أنس .. تانى وحياتك .. تانى .

– ربنا يقويك .. يا أسطى حميدة .

– تانى .. تانى .

– لا كفاية بقا .. لازم نزف العريس .. ياللا يا حبايب .

– ياللا ياولاد بقا .. المعازيم روحوا لموا العدة .. واوعوا حدينسى حاجة .

– حاضر يا معلمة .. ياللا أمال اعملولكم همة .. واحنا بقينا وش الصبح يا ندامتى ؟ .

– فيه إيه يا أبلتى ؟ .

– فين توفيق يا أولاد ؟ دوروا عليه فى كل حته ليكون تاه .

– دنا شايفاه قاعد جنبك طول الفرح .

– أمال راح فين .. يا توفيق .. يا توفيق .

– دا نايم آهه يا أبلتى .

– فين يا بت ؟ .

– أهو .. تحت الكراسى .

– اسم الله عليك يا حبيبى ، يا حبة عينى .

•• ومرت السنوات ، وذاكرة الحكيم لم تمح منها هذه اللحظة الحلوة حين فتح عينيه ليرى نفسه بين ذراعى الأسطى حميدة يتلقى قبلاتها ، ومرت السنوات وعلم توفيق بزواجها ، وأصيب بخيبة الأمل من جديد ، وأصبح الحب المحروم .. هو الحب الذى يلهب أحاسيسه ليبدع فنه ، وعندما شب عوده وذهب إلى باريس كان لعلاقته العاطفية بالفتاة الألمانية « ساشا شوارتز » أثر واضح فى رؤيته للحب ، ويصور لنا الحكيم قصة تعرفه بالفتاة « ساشا » فى هذا الحوار الذى حدث بينه وبين صديقه هاب فى باريس :

– أراك قد اعتصرت « موليير » و « بورماشيه » و « ماريفو » اعتصارًا يا توفيق .

– أشكرك أيها الصديق هاب .. اسمح لى أن أطلب لك مشروبًا .

– لا داعى .

– إن هذا المشرب الصغير دمه خفيف ، لا أدرى لماذا أحس بالسعادة كلما جئت إليه ، يا إلهى هاب انظر .

– مـاذا ؟ .

– هذه الغادة الفاتنة ، إن جسمها يذكرنى بتمثال أفروديت .

– ماذا تريد يا توفيق .

– نادى الجرسون واطلب سكينًا .

– سكينًا ؟ ماذا ستصنع به ؟ .

– أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة .. حبًا وجنونًا .

– إنها تستحق ولكن للأسف معها رفيق ، وأى رفيق يا صاحبى إنه شاب وسيم أنيق لا أمل لك أيها الصديق ، وإذا أصررت على السكين فسوف أنادى لك الجرسون .

– لا لا داعى يا هاب ، هيا بنا نخرج ، لا أستطيع أن أكتفى بالنظر إلى كل هذا الجمال ، هيا بنا ، هيا نبحث عن السلوى فى مكان بعيد عن هنا .

– توفيق .. أين أنت أيها الرجل السعيد ، لقد بحثت عنك كثيرًا لأخبرك بخبر سار .. صديقى إنها لك منذ اليوم .

– عمن تتكلم ؟ .

– عن تلك المرأة .

– أى امرأة ؟ .

– المرأة التى رأيتها فى المشرب منذ أيام وكدت تقتل نفسك ؟ .

– أحقًا .. ما خبرها ؟ .

– يا للحظ عندما يوتى الإنسان .. كنت بالأمس فى المشرب ، ولمحت امرأة جالسة إلى مائدة بجوارى وأمامها شراب لم تمسسه شفتاها ، وقد أخفت وجهها فى منديلها وراحت تبكى بكاء مرًّا فعجبت لأمرها ، ونظرت إليها جيدًا ، إنها صاحبتنا « أفروديت » ، وتحدثت معها وعرفت أن صاحبها البرونزى اللون أسبانى يدعى « جريسنا » ، وأنه قد هرب إلى بلاده وتركها بلا مأوى ولا نقود ولا معين ، وعرفت أنها أجنبية هى الأخرى ، ألمانيا أو روسية لست أدرى ، واسمها « ساشا شوارتز » .

– وماذا ستفعل ؟ .

– إنها تجيد الفرنسية ، وكانت تعمل سكرتيرة فى إحدى وكالات السفر عندما خطف هذا الشاب الأسبانى قلبها وجعلها تترك عملها ، ثم ختم قصته معها على هذا النحو .

– وماذا قلت لها ؟ .

– انتظر يا توفيق .. لقد كانت تريد الانتحار ، فصحت مرتاعا أنت تموتين وعندى شخص يموت فيك حبًّا وهيامًا وغرامًا ؟ .

– خذنى إليها يا هاب ، خذنى إليها بربك .

•• وتعرف توفيق الحكيم على ساشا ، وتوطدت بينهما الألفة وشاركته حجرته الصغيرة ، بل وخصص لها مبلغًا صغيرًا كل يوم لكى تنفقه أثناء تجولها للبحث عن عمل لكنه عندما عاد فى المساء لم يجدها ، ووجد رسالة منها تقول له فيها :

– سيدى ، إنك لا تريدنى ، لقد ظللت أبحث عبثًا ، وأستعرض فى ذاكرتى كل ما حدث أمس فى المساء والليل ، علنى أجد اللحظة التى أكون قد خيبت ظنك فيها ، لكن لم أوفق فورًا .

– لاشك أنك مجنون يا توفيق .. لماذا ؟ .

– فى الحقيقة أننى نادم ومتألم يا هاب ، كنت أحسبها أنها ستكون عبئًا على ستضايقنى ، لكنها كانت تملأ المكان بعطرها النسائى ، ما أجملها عندما كانت مرتديه ثوب النوم الذى أعرتها إياه بالأمس .. ليتها تعود ما أوحش الليل بدون امرأة ..

– هيا نذهب إلى صديقتها التى كانت تقيم عندها فربما ذهبت إلى هناك لتأخذ بقية أمتعتها .

– هيا بسرعة .

وعادت (ساشا) لتقيم عدة أسابيع مع الحكيم ، لكنه كان يخرج منذ الصباح ليعود فى الليل ، وذات مساء ، عاد فوجدها مستيقظة تخفى بكاءها وسألها :

– ماذا حدث يا ساشا ؟ .

– إنك تتغيب كثيرًا ، لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى على الرغم من الجهد الذى أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك ، مسيو توفيق أرجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لا يعجبك

فى ، قلها بصراحة ، ربما كنت مخطئة ، قل لى كلمة ، كلمة واحدة مسيو توفيق .

ولم يقل الكلمة التى كانت تريدها ،وأوضح هذا عندما علق على تلك التجربة العاطفية بقوله :

« إنى أدرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا ، وقد يعود إلى سابق اشتعاله إذا عادا خليلين لكل منهما حياته المنفصلة ، فإن الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال ، ما معنى سؤالها ، أتراها أنوثة المرأة ، تنسى كل شرط واتفاق ولا تذكر إلا الرغبة فى أن تشغل قلب الرجل وماذا أنا قائل لها ؟ مادمت لم أوفق بأنها تحبنى ؟ .

كانت هذه التجربة هى التى أوحت إلى توفيق الحكيم بتلك الكلمات :

(إنى أحب الحب .. آه .. لو كان القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة وجعلنى أجد أحدًا يحبنى حقيقة ولو مرة واحدة) .

•• لم تؤثر التجربة العاطفية التى مر بها توفيق الحكيم مع شباك مسرح « الأوديون » هى التى أثرت فى وجدانه وحسه الفنى أيضًا فهى « سوزى » فى « عصفور من الشرق » وهى تتراءى بخيالها وصورتها فى « شهرزاد » « والخروج من الجنة » ويا طالع الشجرة وفى أمام شباك التذاكر إن « إيما دوران » تعتبر من الشخصيات الهامة فى حياة قلب الحكيم وعنها قال :

(كانت علاقتى (بايما) علاقة حب ، وقد كانت أول مرة أعرف فيها الحب الكامل ، أى الذى يمس القلب والجسد معًا ، أما قبل ذلك فلم

نكن نعرف فى شبابنا لظروف المجتمع فى بلادنا غير نوعين عن الحب ينفصل أحدهما عن الآخر تمام الإنفصال ، فكان حب القلب شىء وحب الجسد شىء آخر ، أما فى باريس فإلى جانب حب « ايما » الكامل الجامع للقلب والجسد ، فقد كان هناك حب آخر جسدى محض لا علاقة للقلب ، هو تلك العلاقة مع « ساشا » التى شاركتنى حجرتى أكثر من شهر) .

** نستطيع أن نتعرف على مواقف الحب بين الحكيم و « ايما » فى ذلك الحوار الممتع الشيق ، الذى ضمنه مقطوعته الفنية « أمام شباك التذاكر » .

- سيدى يريد مقعدًا بالمسرح .
- لا .. لا أريد شيئًا يا آنسة .. أشكرك ؟ .
- لا شىء ؟ .
- لا شىء على الإطلاق ، أيدهشك ذلك أيتها الآنسة ؟ .
- بعض الشىء يا سيدى ..ألا تطلب شيئًا ؟ .
- وماذا تريدين أن أطلب .
- أطلب كرسى بالمسرح مثلا .
- ولكنى واثق أنه ليس لديك كرسى خال .
- ليس لدى ؟ .
- نعم ليس لديك ؟ .

– كيف تعلم ذلك ؟ .

– أعلم حق العلم وأثق أنا من ذلك ومتأكد كل التأكد .

– هذا عجيب ، ولكن أؤكد لك يا سيدى أن عندى كراسٍ خالية كثيرة .

– وأنا أؤكد لك يا آنسة أنه ليس لديك أى كرسى خال .

– عندى .

– كلا .. صدقينى .

– كيف أصدقك يا سيدى وأمامى لوحة كراسى الصالة ، و ...

– لا تهمنى اللوحة ، فلنتراهن ، إنى أراهن ، وها هى ذى مائة فرنك .

– ستخسر نقودك .

– بالعكس وسوف ترين .

– هذا عجيب .

– لا محل للعجب ، هذا بديهى ، معقول .. لا تنظرى إلى هكذا ، إنى أتكلم مالكا لجميع قواى العقلية ، ليس لديك محل خال ، وكل امرأة ليس لديها محل خال فى قلبها (تضحك مسرورة) .

– أفهمت . إنى أرى جليًا أنه لم يبق فى قلبك « فوتيل » واحد خال حتى ولا فى أعلى « التياترو » حتى ولا مكان للوقوف فى آخر الصفوف ، أليس كذلك ؟ .

– دعابة ظريفة .

– أعندك حتى مكان للوقوف ؟ .

– ياله من مزاح .

– نعم إنه مزاح ، ولكن أجيبينى : أعندك ، أم لا ؟ .

– أتريد مكانًا للوقوف فى قلبى ؟ (تضحك) ما أغرب ذلك .

– ليس لديك هه لقد سبق أن توقعت ذلك وقلته لك ، أترين لقد صدق حكمى أليس كذلك ؟ كذلك كنت مصيبا وعلى هذا فإننى الرابح ؟ .

– بالعكس .. لا تمس الرهان من فضلك يا سيدى .

– كيف ؟ .

– لست أنت الرابح ، أنت تطلب مكانًا للوقوف فى آخر الصفوف أليس كذلك ؟ .

– نعـــم ؟ .

– حسنًا ، عندى طلبك ، عندى مكان ، مكان لواحد فقط لحسن الحظ ، فما رأيك ؟ .

– مكان للوقوف فى آخر الصفوف كيف ذلك ؟ .

– ألست أنت الذى طلبت ؟ ومع ذلك ليس هذا صعب التفسير ، هل فهمت ؟ .

– لا .. لم أفهم .

– إن هذا المكان يا سيدى يعطيك الحق فى الحضور هنا فى أوقات فراغك لترانى وتتحدث إلى وأنت أمام شباك التذاكر ، واقف كما أنت الآن ؟ .

– بغير جلوس ؟ .

– لا جلوس ، تقف هكذا مثل عود الزنبق ، هذا هو الحل .

– أهكذا كل شىء ؟ .

– كل شىء ، والآن كما ترى وقد سويت المسألة ، فقد أصبح الرهان لى وهذا حق ، وإنى أضع هذه الورقة المالية ذات المائة فرنك بلطف وبذوق فى جيبى .

** واستمر الحوار بين الحكيم وملهمته « إيما » وحاول أن يسترجع منها الورقة المالية لكنه لم يستطع ، وأخيرًا طلب منها أن تحبه ولو بأى ثمن فقال له :

– لماذا تريد منى أن أحبك بأى ثمن ؟ .

– لأنى أريد ذلك وكفى .

– أعرف .. ولكن لماذا ؟ .

– روحك .. ذكاؤك .. نظراتك .. شعرك المقصوص كشعر إلهة مصرية .. كل ما فيك ينبىء بامرأة غير عادية ، ثائرة ، متطلعة تسخر من كل شىء ، ولا تحافظ لا على أصول عقلها السليم أو غير السليم ،

وهى خليقة بأى تحول أوجاع الحياة وأحزانها أيا كانت إلى مسرات وملاه ، نوع المرأة الخطرة لكنها المرحة الفكهة ، هذه هى صورتك .

– ليست صورة صادقة .

– بل وأزيد على ذلك أن امرأة كهذه لا تستطيع أن تستغنى عن رجل من نوعها رجل له .. مثلها أساليبه الخاصة .

– ربما .. ولكننى أؤكد لك أننى لا أستطيع أن أحبك ، لأن قلبى الآن ليس ملكى ؟ .

– أؤكد لك أنك ستحبيننى .

– أيمكن أن أحب اثنين فى وقت واحد ؟

– ولم لا .

– كيف ؟ .

– الرجل يحب حليلته وخليلته فى وقت واحد كما يحب كمنجته وقطته معًا ،ولو أن ميزان الحب لهما غير مساو ولكنه مع ذلك يحب الاثنين .

– ليس هذا منطقيا .

– اسمعى هاك عنوانى .. فإذا أردت رؤيتى فارسلى إلى كلمة .

– عبثا تحاول .. لن أكتب لك شيئا .

– سأنتظرك فى المساء بمطعم الأب لويس ، إلى الملتقى أيتها الآنسة .

– إلى الملتقى ولكنك سوف تنتظر طويلا .

** وبعد لحظات جاءت إحدى السيدات لتحجز لنفسها مكانًا فى المسرح وسألتها « إيما » : ألا تعرفين يا سيدتى أين يقع مطعم « الأب لويس » ؟ .

** ولم يزل توفيق الحكيم يحب « إيما » حتى اليوم ، لأنها شىء بعيد غير موجود فى كل وقت ، لقد أعطته بعض أسرار نفسها وجسمها ،ولكنها ليست الآن فى يده ، شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا .

ولذا نراه يقول :

إن الحب قصة لا يجب أن تنتهى .

الحب مسألة رياضية لم تحل .

فجوهر الحب مثل جوهر الوجود .

لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم .

* * *

** لقد مر توفيق الحكيم بأزمات نفسية مع المرأة ، مما جعله يعبر عن ألمه والصراعات التى تدور فى صدره فى أعمال فنية فيها هجوم على المرأة ، حتى لقبه بعض الأصدقاء بعدو المرأة ، وبالرغم من كثرة الأعمال المسرحية والفنية التى قدمها الحكيم فى حياتنا الأدبية ، إلا أنه

استطاع أن يخفى لواعج قلبه ، وقصص حبه بين ثنايا السطور ، وكان يدعو إلى أن « الرباط المقدس » ليس هو رباط الزواج فقط ، بل هو رباط الحب ، وهو أغلى رباط بين قلبين ، وقد أبدع فى تصوير تلك الدعوة فى « الرباط المقدس » .

إن حياتنا البشرية قائمة على عمودين : روح ومادة ، لا حيلة لنا فى ذلك ، ولا ينبغى أن نغفل ذلك ، ومن ظن أنه يستطيع الاستغناء عن أحد هذين العمودين ، فهو كمن يريد النهوض على ساق واحدة ، إنه فى أية لحظة مهدد بالانهيار وهذا هو حال بطلة حكايتنا ، كما سجلتها فى « الكراسة الحمراء » :

« إنى أختنق فى هذا السجن الذهبى ، الذى أحاط فيه بسجانين لا يلقون فى نفسى غير الرعب والخوف ، فقد نشأت فى أسرة كبيرة عديدة الأفراد ، كل فرد فيها يحاول أن ينقب فى أعماق أفكارى ليرى إذا كان يجوز أو لا يجوز أن أتصرف هذا التصرف أو ذاك ، ولكننى كنت عطشى لأن أصغى إلى رجل ، إلى رجال يقولون إنى جميلة تواقه إلى أن أرتجف تحت لمسات أيديهم المداعبة ، أريد أن أعرف طعم الحب .

أريد أن يداعبنى ويلاعبنى رجل يحبنى حب الجنون ، ولا يهمنى بعد ذلك من أن يكون مصيرى مصير الزهرة التى تنتزع .. وقد ذبلت من صدر الثوب الأنيق .. الحب .. الحب .. الحب ..

آه، إن تلك الأحلام الوردية التى طالما شيدتها قد أسفرت عن ماذا؟!.

عن زوج وضعونى تحت وصايته، زوج جاء أكثر مما ينبغى ، وانتهى أمرى إلى أن أصبحت مومياء حية .

لم يزل أكثر الناس لا يفهمون ما هو الحب ؟ .

لقد سئمت حياتى ، كل يوم يمر كالآخر ، تفاهات فى تفاهات ، علاقات سقيمة بين الأهل والأقارب ، لا جديد . إلى أن حدثت المعجزة والتقيت به عند شباك تذاكر السينما صدفة .

– إننى سعيد برؤيتك ولهذه المصادفة ، فقد رأيتك بالأمس فى حديقة « مينا هاوس » ، وتشاء الصدفة أن أراك اليوم ، إننى أحس بالفرحة والسعادة .

– لست أدرى كيف أجيب .

– لا يا سيدتى ، إنى حقيقة لست أدرى من أنت ؟ ، ولا ماذا تصنعين ؟ .

– لكن ربما فكرت فى أية لحظة ، أليس كذلك ؟ .

– إننى أفكر فى أناس كل فضلهم أنهم يحبسوننى في سجن من السأم لكننى شاهدتك وأنت تمثل فى آخر فيلم يا أستاذ فتحى .

– لا أحب يا سيدتى أن يتجه اهتمامك إلى الفنان وحده ، لا تنظرى إلى فقط باعتبارى ممثلا ، إن لدى شيئًا آخر غير هذا .

– وكيف تريدنى أن أنظر إليك إذن ؟ .

– لا تؤاخذينى ، لو قلت لك إننى عندما رأيتك بالأمس غمرنى إحساس غريب بأن علاقة ما ستنشأ بينى وبينك .

– ربما .. وشكرًا .. وداعًا الآن .

– لا ياسيدتى لا تقولى وداعًا ، بل إلى لقاء هذا المساء ، سأنتظرك هنا فى حفلة السواريه .. و .. ستكونين قاسية إذا لم تحضرى ، أرجوك أن تكونى كريمة وسأنتظرك .

– إنى أحب ، أحب ، أحب .

هكذا هبط على الحب كالصاعقة وصدفة لن يقف أحد فى طريقى .

– (بفرح) آه يا سيدتى ياله من فرح ، أنت .. أنت إنى لسعيد ، تعالى من هنا ، لقد بدأ الفيلم ، حجزت هذا البنوار تفضلى .

– ألا تدهش قليلا لمجيئى ؟ .

– إنى كنت أنتظرك ، وكان يجب أن تأتى .

– ولكنك لن تتصور معنى مجيئى هذا ولا ما قد ينتج عنه ؟ .

– أظن أنى أستطيع أن أتصور هذا وأن أدرك موقفك ، ولكن مهما نفعل فلن نستطيع أن نهرب من القدر ، لقد شاء أن يحب أحدنا الآخر .

– لا أريد أن أتسرع فأسألك عن اسمك ، لكنك لاشك تسمحين لى فى أن أناديك بصديقتى .

– ممكن أن تنادينى بأحلام .

– أحلام .. أحلام .. وهكذا تحققت الأحلام .

وطوقنى برقة وحرص كأنه يطوق شيئًا مقدسًا ، ووضع شفتيه على شفتى وضعًا لطيفًا خفيفًا فى قبلة شبه طاهرة ، ولم أشعر كيف حدث هذا ، لقد وجدت نفسى بعد ذلك فى شقته وسمعته وهو يقول لى :

– أرجوك أن تعتبرى البيت بيتك يا صديقتى يا حبوبتى ،

وطوقنى والتصقت شفاهنا ، وتنفسنا والعين فى العين ، فخيل إلى أنى أشرب بأنفاسه مشربًا ، فأدركت عندئذ أن جسدى كان جوعان حبًا ، وأن هذا الرجل يستطيع أن يصنع بى ما شاء .

– فتحى .. إنى أموت .. أموت فيك .

– يا حبيبتى .. يا معبودتى .. يا حياتى ،

آه .. اليوم فقط أدركت لماذا تحطم النساء كل قيد يحول بينهن وبين الرجل الذى يكشف لأعينهن العمياء عن ملذات الحب ، أين كنت غافلة عن تلك اللذة الكبرى .

لذة منح النفس للحبيب والفناء فيه ، والإحساس بأنى شىء ضعيف هش بين يديه .

ما أسعدنا نحن النساء بأن نذعن لمثل هذا الرجل وأن تطوى إرادتنا تحت جناحيه ، لقد سكرت من تلك النشوة الحلوة ، من همسات الغرام التى كان ينشدها لى طول الليل ، فاسترخت أعضائى ولانت ، ودب النعاس بين أهدابى بطيئًا بطيئًا .

ورحت فى نوم بين ذراعيه لذيذ .

كم من الوقت نمت ؟ لست أدرى ؟ .

– فتحى .. ماذا تفعل ؟

- كنت أتأملك أثناء نعاسك ، لقد خيل إلى أنى ثملت بعطرك الساحر ، إنك تحسنين اختيار عطورك فيما أرى .

- حقًا .

- لقد كنت أمسك أحيانًا بأنفاسى خشية إيقاظك ، لقد كنت تبتسمين فى نومك كأنك فى حلم ، وغدا وجهك عذريًا كأنه وجه طفلة .

- أين المرآة ؟ .

- لا داعى يا أحلام .. يكفى أن أراك .. ما رأيك هل توافقين ؟ .

- (تضحك) فتحى .. إننى لا أرفض لك طلبًا .

- ماذا تقولين لو سافرنا معًا .. وهربنا بعيدًا بحبنا .

- وبيتى وأهلى ؟ .

- اتركى كل شىء .. وتعالى تظل سعادتنا تحت أشجار الربيع فى أى بلد .

- فتحى ، لقد منحتك غشاء قلبى ولم أمنحه لزوجى ، ويكفينا هذا من الحب ، ولا داعى لأن تعذب هنا الزوج وطفلتى الصغيرة .

- كما تريدين ؟ .

- فتحى ، هل غضبت ؟ .

** ولم يسلم توفيق الحكيم من هجوم الحاقدين عليه لأنه صور الحب فى تلك الصورة العارية الحقيقية ، وكان يهدف من هذا كما يقول : « أن هذا الرباط المقدس ،ليس تعاقدًا اجتماعيا ، ولكنه تآلف روحى وجسدى ، ولا يكفى فيه أن يكون تآلفا روحيا فقط أو جسديًا فقط .

* يوسف السباعى



* الحب ..
أهو عبادة ..
إنه فوق العباد .. »

يوسف السباعى

•• ولد يوسف السباعي في ١٠ يونيو ١٩١٧ ، وخلال رحلته منذ الميلاد حتى الآن واظب على أن يكون مركزًا للإشعاع لمن حوله ، فقد أصدر ما يقرب من الخمسين كتابًا ، في القصة القصيرة والرواية المسرحية والإنطباعات الذاتية ، بجانب نشاطه المتعدد في مجالات الأدب والسياسة ،فقد كان ضابطًا بسلاح الفرسان ،ثم تفرغ بعد ذلك للأدب ، فكان سكرتيرًا للمجلس الأعلى للآداب والفنون ونادى القصة ، والمؤتمر الإفريقي الآسيوى وجمعية الأدباء وغيرها إلى أن أصبح وزيرًا للثقافة والإعلام ، وقد جذب برواياته وقصصه العاطفية قلوب العذارى ، فهو يرى أن سبب نجاحه هو فن الحب ، فنراه يقول لإحدى قارئاته التي سألته :

قارئة : إنك تعتبر كل شيء في الحياة فن ، النجاح في الحب فن ، والزواج والصداقة فن ، فما هو فن الحب في رأيك ؟ .

يوسف : الحب انجذاب إلى شيء يضاعف من قدرة نفوسنا ويضخم انفعالنا به .

قارئة : وهل هو نابع من الشيء أو من ذاتنا ؟ .

يوسف : من الاثنين معًا ، من انعكاس الشيء في ذاتنا .

قارئة : وإذا لم يكن هناك هذا الانعكاس ؟ .

يوسف : بغير هذا الشيء لا يكون الحب ، وبغير ذاتنا المبهورة بالشيء لا يكون للشيء قيمة .

قارئة : إذن الحب انفعال .

يوسف : إن الحب ككل انفعال إرسال واستقبال ، إعطاء وتلقى .

قارئة : إنها معادلة إذن ؟ .

يوسف : إذا تطابق المرسل والمستقبل ، وإذا صادف العطاء هوى المتلقى كان الحب .

قارئة : ومتى ينتهى ؟ .

يوسف : عندما تضيع قيمة العطاء ، أى أنه لم يعد له قيمة .

قارئة : كيـف ؟ .

يوسف : عندما نصبح أعجز من أن نقيمه ، إن قيمة أى شيء ليست حقيقية ، إنما هى نابعة من القدرة على تقييمه ، ومن قدرتنا على التقييم ينبع الحب .

* * *

** قد تزوج يوسف السباعى من ابنة عمه منذ عام ١٩٤٢ ، وكانت قصة حبه هذه دافعًا له لأن يستمر فى تصوير أحلى عاطفة فى الوجود الحب فى رواياته الشهيرة وقصصه ، وعن هذا الحب وحياته العائلية يدور هذا الحوار :

قارئة : هل كانت زوجتك هى التجربة الأولى فى حياتك ؟ .

يوسف : أعتقد أنها كانت تجربتى الأولى الناضجة ، وما قبل ذلك كان عبث صبية .

قارئة : وكيف وجدت الحب قبل الزواج وبعده ؟ .

يوسف : كالفرق بين نار المشعل ونار الموقد ، الأول يتوهج ولا يدفئ والثانى يدفىء بلا توهج .

قارئة : أتعنى أن الحب بعد الزواج أقوى من الحب قبل الزواج ؟ .

يوسف : طبعـًا .

قارئة : والفشل فى الحياة الزوجية .. هل شعرت به ولو مرة فى حياتك ؟ .

يوسف : لا أعتقـد .

قارئة : ولكن علماء النفس قالوا إن هناك فترة معينة من الزواج يشعر فيها الإنسان بالفشل فى حياته الزوجية .

يوسف : هذه الفترة لم تمر بى حتى الآن .

قارئة : أبـدًا ؟ .

يوسف : أبدًا – لأننى لم أحمل الزواج فوق طاقته ، ولم أحاول أن أجعل منه حلما ورديا تذبله اليقظة ، ويذوده غبار الواقع ، ولكننى كنت فى زواجى واقعيًا أعرف كل التزاماته ، وكذلك كل منغصاته ، وأسلم بها وأعتبرها جزءًا من حياتى .

قارئة : ألا توجد لحظات متعبة فى الزواج ؟ .

يوسف : هناك بعض لحظات وقد مرت بى ، جعلتنى أكفر بالزواج وبقيوده ، ولكنى كنت ما ألبث أن أهدأ وأسلم به كجزء من حياة الإنسان لا يمكن الاستغناء عنه .

قارئة : ما رأيك فى الذين يقولون إن الرجل الفاشل فى حياته الزوجية يحاول تعويض ذلك بالنجاح فى عمله ! .

يوسف : هذا رأى خاطىء .. إن السعادة بالنسبة لأى إنسان لا يمكن تحديدها أو قياسها حسب أمور حياته ، بل إنى أرى أن سعادة الزوج فى بيته تعطيه قدرة على أن يكون أكثر اتزانًا وأشد صبرًا ، وهى تعتبر بعض عناصر النجاح فى العمل .

** وقد صدرت له أول مجموعة قصصية عام ١٩٤٧ بعنوان « أطياف » ، وتوالت المجموعات القصصية والروايات حيث صور فيها قطاعات مختلفة من حياة البشر فى إطار رومانسى خيالى ، فقد صور فى مجموعته » يا أمة ضحكت » صورة جميلة للحب فى أقصوصته « جنة » :

شـاب : أيها الحارس الكريم – لماذا لا تدعنى أدخل الجنة .

حـارس : إنك لم تحاسب بعد أيها الشاب فانتظر دورك .

شـاب : هذا هو باب الجنة ، وليس بينى وبينه إلا « فركة كعب » ، خطوة واحدة .

حـارس : قلت لك انتظر دورك ولا تتحرك من هنا .

شــاب : الحمد لله ، لقد هربت من الحارس « الله » إننى الآن فى الجنة ، ما أجمل هذا النهر ، إن منظره جميل جدًا ، سأغرق فيه جسدى (يصرخ) يا إلهى - إنه نهر من عسل ، إننى أحمق وغبى ، ماذا سأفعل الآن لأتخلص من هذا العسل لابد أن أعثر على ماء .

آه - وجدت هذا البساط السندسى فلأتمرغ عليه كما يتمرغ الحصان الأسترالى ، لا فائدة - لابد من العثور على ماء - لابد .

آه - ما هذا النهر ، سأكون حذرًا هذه المرة ، يا إلهى ، إنه نهر من الخمر ، ما هذا الذى أراه ، إننى لا أصدق عينى يارب ، ثلاثة من الحور بأجسادهن الرائعة ، تبارك الخلاق خلق فسوى :

إحدى الحوريات : أهلا وسـهلا .. تفضل .

شــاب : يا نهار أبيض .. هكذا مرة واحدة ، سلامات وتحيات ودعوات طيبات .

إحدى الحوريات : ألا تنوى الاستحمام ؟ .

شــاب : أستحم !! - إنه نهر من اللبن ، فكيف أستحم فى اللبن ؟ .

إحدى الحوريات : أليس هذا أفضل من غيره ؟ .

شــاب : طبعًا .. طبعًا ، ولكن كنت أفضل لو كان عندكن ماء .

إحدى الحوريات : مـاذا ؟ .

شــاب : ماء .. ماء عادى ، فقد تعودنا أن نستعمله فى الأرض للاستحمام .

إحدى الحوريات : هيا .. هيا ، لا تكن جاهلا ، إياك أن تذكر الماء بعد ذلك ، هيا اخلع ملابسك .

شـاب : أنا .. لا .. لا .

حـارس : إنه هو .. تعال أيها الهارب ، لقد فررت منى ، هيا للحساب .

إحدى الحوريات : (بفزع) يا للفضيحة – إذًا فهو ليس من أهل الجنة أيها المخادع الشرير .

حـارس : هيا .. فقد جاء وقتك للحساب .

** وذهب به الحراس إلى لحظة الحساب ، حيث جلس ملاك الخير وملاك الشر ليزنا حسناته وسيئاته ، وقال ملاك الشر ، إنه كان يدعو إلى الحب وهذا شر ، وصاح الشاب يدافع عن نفسه ، إن الله جميل يحب الجمال ، هذا ليس بشر ، ولا يعتبره شرًّا إلا صاحب النفس الشريرة ، وما الحب .. إلا الحياة والخير معا .

* * *

ظل ملاك الشر وملاك الخير ، يزن كل واحد منهما ما هو مختص به من حسنات وسيئات الشاب إلى أن توازت الكفتان .

حـارس : هيا أيها الشاب .

شـاب : إلى أين أيها الحارس .. إلى الجنة بلا شك ؟ فالحوريات ينتظرنني .

حـارس : (يضحك) ليس إلى الجنة ولكن إلى الأرض .

شـاب : لمـاذا ؟ .

حـارس : لقد توازت الكفتان ، ولابد أن ترجح إحدى الكفتين على الأخرى حتى نستطيع إدخالك الجنة أو النار .

شـاب : أتسمح لـى بلحظة ؟ .

حـارس : لـم ؟ .

شـاب : أمر على الحور ، فإنى أخشى أن يقلقن من طول الانتظار .

حـارس : لا تكن أحمق ، ألم تعرف من يدخل الجنة ومن يدخل النار ؟ .

شـاب : أجل .. أجل .

حـارس : إذن ، عد إلى الأرض واصنع الخير لترجح كفتك على كفة الشر .

شـاب : حالا .. سأذهب إلى الأرض لأحب بكل عمرى ، فالحب هو أقصر الطرق إلى الجنة الحب .. الحب .. إلى الحب .

* * *

** كانت قصة الحب التى عاشها يوسف السباعى مع زوجته ، دافعًا له إلى أن يبدع كثيرًا فى وصفها ، فهى عايدة فى قصة « إنى راحلة » ، و « إنجى » بطلة « رد قلبى » ، والأم فى « ليل له آخر » ، إنها خليط منهن ، فهى تقول فى هذا الحوار :

قارىء : متى قَرَأْتِ أولَ قصة ليوسف السباعى ؟ .

الزوجة : كانت قصة (تَبَّتْ يدا أبى لهب وَتَب) ١٩٣٢ ، وكان لايزال تلميذًا بالمدرسة الثانوية وقابلته فى ذلك الحين وقلت له :

« قصتك عجبتنى » .. ياريتك تتجه للأدب وتروح كلية الآداب ، ولكنه صمم على أن يدخل الكلية الحربية .

قارىء : وهل سببت له الكتابة متاعب فى يوم ما ؟ .

الزوجة : مرة واحدة حينما نشر كتابه « أرض النفاق » ، وكان مليئًا بالنقد المر للحكومة وتصرفات الملك ، ولكن الرقابة لم تلتفت للنقد ، لأنه لم يكن فى صورة مقال مباشر ، ومنذ ذلك الحين أحسست أن مهنة الكتابة ليست أقل خطرًا على حياة صاحبها من ذهاب الجندى إلى الميدان .

قارىء : ما القصة التى نفذت إلى أعماقك من قصص زوجك ؟ .

الزوجة : قصة السقا مات ، لأنها مليئة بنماذج إنسانية رائعة بلا رتوش .

قارىء : وأين أَنْتِ فى قصصه .. ومن المعروف أن ملامحك كانت فى كثير من نماذجه ؟ .

الزوجة : (بخجل) أنا عايدة بطلة قصته « إنى راحلة » ،ولكن فى نصفها الأول فقط ، حيث صور جزءًا كبيرًا من خطبتنا وحياتنا .

قارىء : والنصف الآخر ؟ .

الزوجة : أما النصف الآخر فهو خاص لوجه التأليف والأدب القصصي .

* * *

** رواية « إني راحلة » تعتبر من الروايات الناجحة التي كتبها يوسف السباعي ، وهي تحكي قصة الفتى « أحمد » وحبه لابنة خالته « عايدة » رغم ما كان بين الأسرتين من شبه عداوة ، وتتزوج عايدة من تهاني بك وهو أحد شبان الطبقة المترفه المنحلة تحت ضغط والدها ، وتغلق قلبها على حبها العارم لأحمد ، وتنزوي مهيضة الجناح في حياتها الجديدة ، وخاصة أن زوجها تهاني أو « توتو » تركها ليغرق في ملذاته ، وتركها نهبًا لمعاكسات الرجال وخاصة زوج عشيقة زوجها ، وفي هذه الأثناء أيضًا تزوج أحمد ، وشاءت الظروف أن يلتقي بعايدة بعد غيبة سنوات طويلة :

أحمد : أين تهاني بك ؟ .

عايدة : (بسخرية) تهاني بك ؟ (لنفسها) ماذا أقول له – أقول إنه زاغ مع عشيقته وتركني ليتسلى بي زوج عشيقته ؟ .

(بألم) اجلس يا أحمد ، إن زوجي لا يهمه أمري كثيرًا ،إنك على الأقل أولى من الغريب .

أحمد : كيف حالك يا عايدة ؟ .

عايدة : الحمد لله .. وأنت .

أحمد : لا بأس ، الحياة تسير .

عايدة : (ضاحكة) وكيف حال أمانيك وأحلامك .

أحمد : على خير ما يرام .

عايدة : أما زالت كما هى أمانى يمكن تحقيقها ؟ .

أحمد : هل مازلت تذكرين أنى لا أستطيع أن أعيش بدون أحلام أو أمانى ، ففى كل ليلة أحلم لتكون ليالى نورًا لأيامى القادمة .

عايدة : (ضاحكة) هل مازلت تتمنى أن تكون نابليون أو شكسبير ، أم أن هناك أمانى أخرى ؟ .

أحمد : (يضحك) من هذه الناحية .. لقد تبدلت أمانى تماما ، لقد يئست من نابليون وشكسبير ، لم تعد هذه الأمانى تطربنى كما كانت من قبل ، لقد أصبحت لدى أمنية جديدة بنفس الاستحالة ونفس البعد ، لا أمل فى تحقيقها ،لكنى مع ذلك أحيا بها زمنًا رغدًا .

عايدة : ترى ما هى الأمنية الجديدة ؟ .

أحمد : أمنيـــة .

عايدة : ما هـــى ؟ .

أحمد : أمنية .. وكفى .

عايدة : ألن تقول لى ما هى ؟ .

أحمد : لا ... لا أستطيع .

عايـدة : والأمانى الأخرى التى كنت ترجو تحقيقها .

أحمـد : تحققت كلها تقريبًا ، تحققت كما أراد القدر لا كما أردت أنا ، شقة متواضعة .. زوجة طيبة .. عربة صغيرة (على قد الحال) أما الابن ففى الطريق ننتظر قدومه فى القريب العاجل .

عايـدة : أحقًا توشك أن تصبح أبًا ؟ .

أحمـد : أكثير علـى ؟ .

عايـدة : مازلت صغيرًا .. ماذا تنوى أن تسمى ابنك ؟ .

أحمـد : لو كان ولدًا سميته عليًا .

عايـدة : ولو كانت بنتا ؟ .

أحمـد : أنت أدرى بأحب الأسماء إلى .

عايـدة : حـتى الآن ؟ .

أحمـد : حتى آخر العمر .

* * *

•• تمر الأحداث سراعًا وتموت زوجة أحمد مع جنينها أثناء الولادة ، وتخيم على أحمد كآبة حزينة لكنه كان لايزال يحمل فى قلبه دفء حبه لعايدة ، وهى أيضًا كانت لاتزال عطشى إليه ، رغم مذبحتها فى الزواج الفاشل . ثم يلتقى الحبيبان ويهربان إلى الإسكندرية ليرتشفا من رحيق الحب الذى حرمهما منه القدر ، وليشربا معًا كئوس الغرام ، تعويضًا عما فاتهما من أيام ، وأيام عاشها فى ألم وحرمان ولهفة واشتياق .

* * *

أحمـد : عايدة .. عايدة .. لا تبكى إنى بجوارك .

عايـدة : لا تتركنى يا أحمد ، لا تذهب بعيدًا عنى ، ضمنى إليك .

أحمـد : لا تبكى يا حبيبتى ، لن أذهب أبدًا ، ولن يأخذك أحد منى .

عايـدة : لا تتركـنى .

أحمـد : سأذهب لأفتح الكابين .

عايـدة : ضمنى يا أحمد ، لا أريد أن أفترق عنك لحظة – لحظة واحدة .

أحمـد : هيا .. ندخل الكابين .

عايـدة : أحمد حبيبى ، كنت محرومة أن أقولها هل أنت سعيد ؟ .

أحمـد : كل السعادة يا عايدة ، أحمد الله لأنه حقق لنا أمانينا ، ولكن .

عايـدة : ولكن ماذا يا حبيبى ، أتشعر بندم ؟ .

أحمـد : أنا .. أبدًا ، ولكن أنت ، إنك مازلت زوجة .

عايـدة : زوجة .. لا تقلها مرة أخرى ، أى زوجة أنا ، زوجة ضائعة الحقوق ، مسلوبة الكرامة ، لا .. لا ، إنى لا أعتبر نفسى زوجة ، وأستطيع أن أذكر لك أن مصيرى يمكن أن ينتهى إلى أى شىء إلا العودة إلى هذا الحيوان .

أحمـد : عايدة حبيبتى .

عايـدة : أحمد روحى أرجوك ضمنى إليك بشدة ، ولا تنسى لحظتنا

الحلوة بتفكيرك فى الماضى أو المستقبل ، يجب أن نعيش فقط فى لحظتنا الحلوة فى ليلتنا ، إنها بكل عمرنا .

أحمد : (بحب وحنان) عايدة حبيبتى ، لن يأخذك منى أى أحد .

عايدة : حبيبى أحمد .

أحمد : (يصرخ بألم) .

عايدة : (بانزعاج) أحمد .. أحمد ، ماذا حدث لك ؟ .

أحمد : المغص .. لقد جاءنى مرة أخرى .

عايدة : ماذا أفعل لك يا حبيبى ؟ .

أحمد : (يصرخ بألم) آى .. آى .

عايدة : أحمد .. هل أحضر إليك الدكتور ؟ .

أحمد : آى .. آى .

عايدة : يارب .. أحمد ، إنك تتألم كثيرًا ، ماذا أفعل يا حبيبى ؟ .

أحمد : (يتألم بعنف) أوقدى أى شمعة ، أريد أن أراك .

عايدة : حالا يا حبيبى ..

أحمد : (هامسًا) عايدة .. عايدة .

عايدة : أحمد .. إننى بجوارك .

أحمد : أقدمى .. ضعى يدك على شفتى .

عايدة : لا تتعب نفسك بالكلام يا حبيبى .

أحمـد : لقد انتهى المغص .. لابد أن الزائدة انفجرت .

عايـدة : أحمد لا تقل شيئًا ، إنك ستستريح .

أحمـد : عايدة– إنى أحبك وأحب الحياة من أجلك ، كم وددت ألا أتركك وحدك فى هذه الدنيا .

عايـدة : لا تتكلم هكذا يا أحمد ، أنت بخير يا حبيبى .

أحمـد : أنا بخير مادمت بجوارى ، دعينى أتحسس شعرك .

عايـدة : إنى أضحك يا حبيبى .

أحمـد : إن شعرك مبتل وكذلك ثيابك لماذا ؟ .

عايـدة : كنت بالخارج والمطر يتساقط ، كنت أحاول أن أستدعى طبيبًا .

أحمـد : طبيب ! ، وما الفائدة ؟ ، لقد انتهى كل شيء ، إنى أحس السم يسرى فى جسدى ، لقد ذهب الألم وذهب العمر كله .

عايـدة : أحمد .. أحمد حبيبى (تصرخ) أحمد .. أحمد حبيبى لا تتركنى لا تتركنى .

* * *

•• وما قيمة الحياة إلا من شعاع الحب ، وقد انطفأ شعاع الحب أمام عايدة ، فلم تجد وسيلة إلا أن تطير مع حبيبها أحمد فى عالم لا قيود فيه ، ولا عيون ، فأشعلت النيران فى الكابين ، وتحت الأنقاض المحترقة

استقر هيكلان متعانقان ، لم يبق منهما إلا فتات هشيم ، وكأنهما كانا يتعبدان فى محراب الخلود ، محراب الحب .

* * *

•• وكانت رواية « الأطلال » ليوسف السباعى تقف فى صف واحد مع « إنى راحلة » و « فديتك يا ليلى » كمرحلة جديدة فى أدبه ، تبعد عن التعميمات والمطلقات ، ولكنه مايزال مشبعًا بالروح الرومانسية ، فقد أحبت سامية .. « الفتاة الصارمة المتشبهة بالرجال » والتى تريد أن تكون أول وزيرة .. أستاذها الشاب « كمال » الذى لم يكن يتصور أن يقع فى شباك الزواج ، الحب هو الذى جعل سامية تهمس قائلة : إن المرأة إذا أحبت ،فهى تفضل مسح حذاء زوجها على رئاسة الوزراء .

ويلتقى كمال « بسامية » فى المعادى ويفصح لها عن رغبته فى الزواج منها فتوافق ، وأخذ منها صورة لها وهى صغيرة ، مع الأم التى تعيش معها ، فأخذ الصورتين ، وطار هو إلى بيته ، وطارت سامية إلى بيتها لتخبر أمها وهى فى الحقيقة ليست أمها :

الأم : وماذا دعاه إلى خطبتك ؟ .

سامية : حماقتـه .

الأم : وماذا دعـاك إلى قبوله ؟ .

سامية : حماقة أشـد .

الأم : سامية .. كونى صريحة فى قولك ، كونى جادة مرة واحدة فى مسألة هامة كهذا .

سامية : صراحة .. لقد أحببته ؟ .

الأم : أنت أحببت ؟ ! .

سامية : ولـم لا ؟ .

الأم : كنت أظن أن قلبك مثلك لا يفتح لأحد .

سامية : وكنت أظن ذلك حتى طرقه صاحبنا فانفتح على غير إرادة منى ، لم يكن معه مفتاح ، بل كانت معه طفاشة ، لقد فتح باب قلبى على مصراعيه بمجرد أن سمع وقع أقدامه .

الأم : أنت تقولين هذا ! .

سامية : ولم لا يا أماه .. إنى بشـر .

الأم : ومثلك العليا ؟ وخططك الهائلة ؟ ومشروعاتك الكبرى ؟ والدكتوراه ، والحزب النسائى ؟ وحقوق المرأة ؟ والبرلمان والوزارة ؟ .

سامية : كل هذه ما عادت تساوى شيئًا ، لقد أمرنى أن أكف عن الدراسة فلبيت طلبه .

الأم : هكذا وبمثل تلك السرعة ؟ رغم أنى عندما سألتك الكف عنها رفضت بإباء .

سامية : إنه الحب .

** ويلتقى كمال بمربيته ، فيريها صورة خطيبته فتصعق وتقول له فى

فزع : خطبت من ؟ ! ، أنت مجنون ؟ ! ، إنك لا تعرف من تكون هذه ؟ ! ..

كمال : ابنة مـن ؟ .

المربية : ابنة أمك .

كمال : ابنة مـن ؟ .

المربية : أمك .. أمك أنت .

كمال : إنك لاشك قد جننت .. إنك تعلمين أن أمي قد ماتت .

المربية : ماتت أو لم تمت .. هذه هي أمك .. بعينها ولحمها ودمها .

كمال : يا حاجة لا تكوني مجنونة ، أنت تعرفين أن أمي ماتت ، تعرفين أني ولدت فلم أجدها ، إنها ماتت وهي تضعني ، هكذا عرفت طول حياتي ، هكذا قال أبي ، وهكذا قلت أنت ، إني لم أعرف لي أمًا سواك .

المربية : هذه هي أمك .. اقطع علاقتك بهذه الفتاة .

كمال : كيف أقطع علاقتي بها من أجل تخيلاتك ؟ .

سامية : ماذا بك يا كمال ، ألم تر الهرم إلا الآن ؟ .

كمال : لا شيء يا سامية ، إنني أفكر فيم حدث بالأمس .

سامية : ماذا حدث ؟ .

كمال : لقد وقع حادث مضحك .. حادث عجيب .. إنه نكتة .

سامية : لم تقل لى ماذا حدث ! .

كمال : لقد شاهدت الحاجة صورتك وأنت واقفة بجوار والدتك ، فما كادت تراها حتى قالت :

سامية : (مقاطعة) قالت على قبيحة ؟ ! .

كمال : يا ريت !! .

سامية : متشردة ، مجنونة ؟ قل .. قل .. إنى سأتحمل أى إهانة منها .

كمال : لم تقل عنك شيئا ، بل إنها لم تلتفت إليك إطلاقا .

سامية : قالت ماذا عن أمى ، سأعرف كيف أقتص منها ، ماذا قالت ؟ .

كمال : قالت إنها أمى أنا .

سامية : (بدهشة) أمك أنت ؟ (تضحك) .. كويسه .. كويسه خالص ، نكتة رائعة .

كمال : ولكنها لم تقلها على سبيل النكتة .

سامية : ربما تكون أمى شبه أمك ، يخلق من الشبه أربعين .

كمال : إنها لم تقل إنها تشبهها ، بل قالت إنها هى .. هى .

سامية : ولكنك قلت لى إن أمك (عليها رحمة الله) قد توفيت ، وأمى (مد الله فى عمرها) مازالت حية .. فما رأيك ؟ .

كمال : لقد أصابها ارتياع شديد ، كادت الصورة تصرعها وأصرت على أنها هى بعينها أمى ، وأنها تعرفها من بين ملايين النساء .

سامية : على أية حال المسألة ليست بعيدة ، سأسأل أمى عما إذا كانت قد ولدتك قبلى .

أما الآن فدعنا من هذه المجنونة التى حيرتك ولنتحدث فيما هو أهم ، وفى الغد سأحمل رأى أمى فيك ، وفى الحاجة (بتاعتك) ولا أظنه رأيا يسرك .

* * *

الأم : (ضاحكة) كيف حال خطيبك يا سامية ؟ .

سامية : بخير ، يسلم عليك كثيرًا يا ماما ، وسيزورك قريبًا .

الأم : متى ؟ .

سامية : قريبًا ، على فكرة .. لقد اتضح أن لنا به صلة قرابة .

الأم : صلة قرابة ؟ ! .

سامية : أجل قرابة ، أى شىء غريب فى هذا ؟ .

الأم : أتمزحين ؟ .

سامية : بل أقول الجد .

الأم : قرابة من أى نوع ؟ .

سامية : نوع عابر بعيد ، إنه ابنك .

(تضحك) بسيطة ، إنه ليس أكثر من أخي ، الحمدلله أنه لم يكن أقرب من ذلك ، لم يكن أنا مثلا ..

الأم : (ضاحكة) ألا تكفين عن المزاح ؟ حياتك مزاح في مزاح .

سامية : وما ذنبي أنا في ذلك والحاجة تؤكد قولها وتقسم عليه .

الأم : الحاجة ؟ من هي الحاجة ؟ .

سامية : التي قامت على تربيته بعد وفاة أمه .

الأم : ولكن ، ألم تقولي إن أمه قد ماتت ؟ .

سامية : هكذا قالوا له ، إنه لا يذكرها ولا يذكر موتها .

الأم : وماذا قالت له الحاجة ؟ .

سامية : قالت ماتت أو لم تمت ، إن هذه هي صورة أمك ، فأوقف خطبتك واقطع كل علاقة لك بها .

الأم : آه .

سامية : أماه ؟ ماذا بك .. ما بالله ؟ .

الأم : (بصوت ضعيف) ماذا قلت عن اسمه ؟ .

سامية : كمـــال .

الأم : كمال ماذا ؟ .

سامية : كمال عبد الرحيم .

الأم : لا .. لا .. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا ؟ .

سامية : (بفزع) ما بك ، ماذا حدث ؟ ماذا تقولين ؟ .
أجيبى يا أماه ؟ لا تتركينى هكذا حائرة قولى شيئًا .

الأم : تعالى .. تعالى يا سامية ، خذى هذه الأوراق ، اقرئيها .. كان يجب أن تعرفيها من قبل ، لكن ظننت أن الحياة يمكن أن تطوى ما مضى ، ولم أظن أن الأقدار ستعود مرة أخرى إلى نبش رفات الماضى ، خذيها .. اقرئيها .

سامية : ماما ..

الأم : إنى بخير ، سأجلس فى الشرفة واذهبى أنت لقراءتها .

** وسارت سامية إلى حجرتها وهى تطبق بأصابعها على تلك الأوراق ، ماذا بها ، ماذا يمكن أن تحتوى عليه من الأسرار ؟ وكيف سينتهى بها الأمر ؟ أيمكن أن يكون النبأ صحيحًا ؟ أيمكن أن يخيب القدر لها أول أمل فى حياتها بمثل هذه الوسيلة المفجعة التى لا تحدث إلا فى القصص ؟ إن فى الأمر سرًا ، أجل ليس أخاها لا يمكن أن يكون .

** وظلت سامية تقرأ قصة الحب التى كتبها والدها عن نفسه وحبه الكبير مع تلك الفتاة التى عشقها ، وذاب معها فى نشوى الحب ، كان يصف لقاءهما فى سيارته قائلا : وأوقف السيارة فى جوف الصحراء ونظرت إليك ونظرت أنت إلى الفراغ البعيد ، وأخيرًا التفت إلى وهتفت باسمى بطريقتك الدائبة المتوسلة اللهفى ، كنت أشعر بظمأ شديد إليك ، وما أظن ظمأك كان أقل من ظمئى ومددت ذراعى نحوك ، فأحطتك

بهما وضممتك إلى ، وقلت وأنت تحاولين مقاومة ضمى ، دعنا نتحدث .

هـو : كيف ؟ .

هـى : قل شيئًا .

هـو : كل ما سأقوله سيكون تافهًا ، إن أقصى ما أستطيع قوله أنى أعبدك . .

هـى : وأنا أيضًا أعبدك ، إنى ملكك وحدك ، كم أوحشتنى غيبتك ، وكم ناجيتك فى سكون الليل ، كنت أسألك وأتخيل إجابتك على ، ضع رأسك فى حجرى ودعنى أتحسس شعرك ، دعنى أحقق كل ما تمنيته وكل ما كنت أفعله معك فى الأوهام والأحلام .

هـو : وهو كذلك ، ما أجمل أن أضع رأسى فى حجرك .

هـى : إنك تبدو كطفل صغير ، وإنى أحس لك بحنان الأم .

هـو : (ضاحكا) أيتها الأم الصغيرة الحلوة ، ألم تلاحظى الشيب الذى دب فى شعر طفلك ، ما رأيك فى هذه الشعيرات البيض ؟ .

هـى : (بحنان) إنى أحبها وأحب كل شىء فيك ، دعنى أقبلها .

هـو : إننى أحسد شعرى .

هـى : سأقبل كل شعرة فى رأسك ، إنى أعبدك كل شىء فيك كل ما بك يستحق العبادة .

هـو : أجل يا حبيبة الروح ما أحبنى أحد كما أحببتنى أنت ، ما أظن

إنسانًا قد أحب إنسانًا كما أحببتنى ، إن حبك أروع وأجمل من كل ما كتب عن الحب والعشاق .

* * *

** عرفت سامية وهى تقرأ سطور القصة أن تلك الفتاة كانت يتيمة وأحبت كاتبها ، إلا أن القدر دائما يحول دون النهايات المرجوة لهذا الحب ، فقد كان متزوجًا امرأة مريضة لا يستطيع أن يهجرها ، وهى بحكم ظروفها الاجتماعية والتقاليد قد استسلمت وتزوجت من رجل لا تحبه ، وأنجبت منه ولدًا هو « كمال » حاولت أن تجعل منه عوضًا عن حبيبها ، وذات يوم علمت أن الحبيب يعانى آلام الاحتضار فى المستشفى بعد أن اصطدمت عربته ، وعندئذ قررت أن تذهب إليه وتحيا بجواره ، ولكن زوجها علم بذلك ودار بينهما هذا الحوار :

الزوج : اسمعى .. إذا خرجت من هذا البيت فلن تعودى إليه .

الزوجة : سأخرج .

الزوج : ولن ترى ابنك .

الزوجة : سأخرج .

الزوج : يجب أن تفكرى جيدًا .

الزوجة : سأخرج .

الزوج : إنك مجنونة .

الزوجة : سأخرج .. سأخرج ، دعنى وشأنى أرجوك ، كفى ما بى .

الزوج : على أية حال سأترك لك فرصة تفكرين خلالها حتى الغد ، فربما تعودين إلى رشدك وتصرفين هذا الشيطان .

الزوجة : لا داعى لهذه الفرصة ، سأذهب من الآن .

الزوج : إذا خطوت خطوة واحدة نحو الباب فأنت طالق .

الزوجة : دعنى أخرج .

الزوج : وابنك ؟ ! .

الزوجة : دعنى أخرج .. قلت لك .

الزوج : لن أتركك تخرجين من هنا حتى تكتبى لى تنازلا عن كل شىء .

الزوجة : لست فى حاجة إلى شىء ، ولا أريد منك أى شىء ، دعنى أخرج .

الزوج : لن تخرج حتى تكتبى التنازل .

الزوجة : سأكتب لك ما تريده ..

* * *

كانت تسير بلا وعى وبلا إرادة .

هو الذى ظنّته قد انكمش فى قلبها على مر الزمن .

هو كل شيء وسواه لا شيء .

هو فى جانب والدنيا كلها فى جانب .

هو هو ، وإذا لم يبق هو فلا بقيت هى .

ولا بقيت الأرض ، ولا السماء على الأرض .

* * *

** من كان يصدق ؟ لقد أصبح ملكها أخيرًا ، ملكها وحدها ، هى خادمته وعبدته ، ألا تجمعهما الآن وحيدين غرفة واحدة ؟ .

ألا يرقد أمامها على الفراش وحده ، وهى التى لم تكن تتمنى شيئًا قدر أن ترقد بجواره وتختبىء بين أحضانه ولكنه كان غائبًا عن الوعى ، يهذى دائما ويقول :

تعالى .. تعالى .

(باكية) إنى بجوارك يا حبيبى ، إنى بجوارك أفديك بروحى يا حبيبى ، لا تتركنى ، لا تتركنى يا حبيبى ، لقد أصبحت الآن بجوارك ، لقد تحققت أمنياتنا ، إنى بجوارك ،فى حضنك يا حبيبى ، لا تتركنى ... لا تتركنى ، (تبكى) .

* * *

** وضاع بين يديها ، ولفظ أنفاسه وهو بين أحضانها ، فعاشت عمرها تمرض الآخرين ، علها تجد عزاء لحبها ، فأحبت أن تخدم

الآخرين ، حتى إنها ذهبت لتقوم بتمريض زوجة حبيبها الراحل التى ماتت هى الأخرى وهى تلد « سامية » وكرست حياتها من أجل طفلة حبيبها ، وعاشت فى نفس البيت الذى يسكنه حبيبها ، تقبل مكتبه وكل شيء كان يلمسه ، لقد فقدت الروح وعاشت « بين الأطلال » ، وعندئذ قالت لها « سامية » : بعد أن قرأت القصة الأخيرة التى كتبها أبوها : أريحينى يا أماه ، قولى أى شيء ، أهو ابنك ؟ .

الأم : نعم .. ولا .

سامية : (تبكى) .

الأم : لا تبكى يا سامية ، إنه ابنى وليس ابنى ، وأنت ابنتى ولست ابنتى ، إننى امرأة شاذة أفنت حياتها بين الأطلال ، وترملت دون أن تتزوج ، وأنجبت ابنة دون أن تحمل أو تلد ، لقد واصلنا الحياة أنا وأنت وجدك حتى حانت منية جدك بعد عام ، وبقينا فى الحياة وحيدتين أنا وأنت .

سامية : يا حبيبتى يا ماما .

الأم : من يكون القادم ؟ .

سامية : سأذهب لأرى .

سامية : تفضلوا .. أهلا .. أهلا كمال .

كمال : ماما موجودة يا سامية .

سامية : موجـودة .

كمال : إنها سامية خطيبتي يا بابا ، عبد الرحمن بك أبي .

الأب : أين الوالدة يا سامية ، لقد عرفنا كل شيء من الحاجة .

سامية : ماما .. ماما .

الأم : مــــن ؟ .

كمال : أمي .. أمي .

الأم : كمال ابني .. كمال (تبكي) .

الأب : كيف حالك ؟ .

الأم : بخير والحمد لله .

الأب : أستبقين وحدك ؟ ، إني على استعداد لعودتك ، إني آسف على ما مضى ، هيا بنا ودعينا ننسى كل شيء .

الأم : (بصوت خافت) بعد هذا العمر الطويل إلا ، لم تعد هناك فائدة ، لقد تعودت الوحدة والنهاية لم تكن بعيدة .

سامية : ماما .

كمال : ماما .

الأم : يكفي أن الحب جمعكما ، هيا أسرعا .

كمال : معك حق يا ماما ، هيا يا سامية حتى لا يظهر القدر بمفاجأة جديدة .

كامل الشناوى



* الحب . .
أن تتعذب بمن تحب
أو يعذبك من تحب !! »

كامل الشناوى

ولد كامل الشناوى فى ٧ ديسمبر ١٩٠٨ ، وتوفى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ ، وفى هذه السنوات التى عاشها كامل الشناوى حاول أن يزرع الدفء والحب والصداقة فى كل كلمة قالها أو كتبها ، ولد فى قرية « نوسا البحر » مركز أجا بمحافظة الدقهلية وكان ضخم الجسم ، مما سبب له مضايقات فى حياته وهو طفل ، وهو صبى يلعب مع الأولاد ، وعندئذ بدأ ينزوى عن الناس ويقرأ ويطالع ، ولكن هذا النقص دفعه إلى أن يتفوق على الآخرين وكان يقول :

غدرات الأيـــام تأتى سراعا

وسراعا تمضى ليـــالى الهناء

رب ليـــل ظللت أرشف فيه

كل ما شئت من رحيق اللقاء

وأتى الصبح بالخطوب التوالى

من عذاب .. ولوعة .. وجفاء

وقد أصيب كامل الشناوى وهو فى المرحلة الابتدائية بحمى شديدة أقعدته فى البيت ، وحرمته من المدرسة ، نشأ فى بيئه دينية ، وكان والده الشيخ سيد الشناوى عضوًا بالمحكمة العليا الشرعية ، فأحضر له مدرسًا ليحفظه القرآن الكريم تمهيدًا لإلتحاقه بالأزهر الشريف ، لكن ميوله الأدبية دفعته إلى أن يترك الدراسة فى الأزهر بعد خمس سنوات من الاستمرار فيها .

واستطاع كامل الشناوى أن يقنع والده بأن يسافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، فأرسله والده إلى مدرسة لتعليم اللغة الفرنسية بالمعادى ، وهناك لم يتعلم اللغة الفرنسية ، بل تفتح قلبه لإبنة مُدَرِّسَة ، لأول حب هز كيانه من الأعماق ، وعاش عليه طول حياته ، كانت فاتنة المعادى هى أفروديت قلبه ، ولم ير أى فتاة أو أى امرأة بعد ذلك إلا فى صورتها يقول :

« كان ذلك عام ١٩٣٠ وهناك رأيتها فى المعادى ، نصفها مصرى والنصف الآخر خليط ، كانت دقيقة الملامح رقيقة هادئة ، ليس فيها ما يثير الصخب إلا ذكاؤها الحاد وجمالها الأكثر حدة ، كانت بيضاء فى عينيها السود كل الحنان ، وعلى شفتيها بسمة أمل ، وبين خصلات شعرها الفاحم المهدل تكمن أسرار كأسرار الليل » .

واستطاعت فاتنة المعادى أن تجعله إنسانًا آخر ، كانت تقرأ له أشعار هوجو لامارتين وغيرهما من شعرا الفرنسية ، ولكن ضاع منه هذا الحب وافترقا ، وعلامة استفهام حائرة على قلبه لا يجد لها جوابًا ، مثلما نتساءل – لماذا نموت ؟ ولماذا نحب ؟ وظل يحبها طوال عمره ، ويبحث عن حبه الأول فى كل فتاة أو مرأة تشبه فاتنة المعادى ويقول :

يا ملهم الحب لا تدعنى
أذوب حبًّا بلا حبيب
أينقضى العمر بين أهلى ؟
وأشتكى لوعة الغريب

لم يسافر كامل الشناوى إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، وعلم نفسه بنفسه ، فدرس مختلف الفنون والآداب ، وكان يتردد على ندوات طه حسين ، والعقاد وأنطون الجميل ، وكان راوية لشعر شوقى .

وفى عام ١٩٣٠ عمل فى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم انتقل بعد ذلك إلى جريدة « الوادى » مع طه حسين ، وظل ينتقل فى عدد من الصحف من جريدة روز ليوسف اليومية ١٩٣٤ ، إلى رئاسة آخر ساعة ١٩٤٥ ، والجريدة المسائية ١٩٤٩ ، ورئيسًا لقسم الأخبار بجريدة الأهرام ١٩٥٠ ، ثم رئيسًا لتحرير الأخبار ، ورئيسًا لتحرير الجمهورية ، ثم عاد إلى الأخبار رئيسًا للتحرير عام ١٩٦٤ حتى لقى ربه فى العام التالى ١٩٦٥ .

أحببتهـــا وظننت أن لقلبهـــا
نبضًا كقلبى لا تقيـــده الضلـوع
أحببتهـا وإذا بهـا قلب بلا نبض
ســراب خــادع ظمـأ وجـوع
وإذا مـررت .. وكم مررت ببيتها
تبكى الخطى منى وترتعد الدموع

* * *

كان كامل الشناوى يستمع إلى قصيدته فى الراديو وهو جالس فى حديقة النادى ، وكانت بجواره إحدى الفاتنات . وقد غطت عينيها بنظارة سوداء ، وقد أطبقت فمها بشفتيها المكتنزتين الحمراوين الملتصقة

إحداهما بالأخرى قبلة الوداع حارة وحزينة ، وكان يجلس بالقرب منها ، وتجاذبا الحديث إلى أن سألته :

هــي : ما هو الحب ؟ .

كامل : إن تعريف الحب يخدش قداسته .

هــي : لو استطعت أن أضع يدى على الحب لأنشبت فيه أظافرى . وانهلت عليه أعضه وأخنقه وأذبحه .

كامل : لن تفعلى ذلك ، فالحب قلب ينبض فى ضلوع أعمارنا ، وقد يؤلمنا القلب فنستلقي على ظهورنا ولا نرهقه بالحركة ، ولكنا لن نتخلص منه إلا إذا أردنا أن نتخلص من الحياة .

هــي : هناك كثيرون لا يحبون ، وهم مع ذلك يعيشون بلا آلام .

كامل : ما أكثر الذين لا يحبون ،ولكنهم لا يعيشون .

هــي : أنت الآن بلا حب ومازلت تحيا .

كامل : ربما ، ولكنى لا أحيا ، وإنما أنا فى إجازة من الحياة .

هــي : قل لى ، هل الحب جنة ؟ هل الحب نار ؟ .

كامل : الحب جحيم يطاق ، والتحرر من الحب جنة لا تطاق .

كان كامل الشناوى كثير القلق فى حبه ، شديد الحساسية والشك ، يستمع إلى دقات قلبه كأنما همسات قدره إليه ، فلا يجد إلا لكلمات يطفىء بها لهيبه قائلا :

لا تكذبى إنى رأيتكما معًا

ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى
من عين كاذبة فأنكــر وادعــى
إنى رأيتكمــا ، إنى ســمعتكما
عيناك فى عينيه
فى شفتيه ، فى كفيه ، فى قدميه
ويداه ضارعتان
ترتعشـــــان من لهف عليـــه
لا تخجلى ..
لا تفزعى منى فلســـــت بثائر
أنقذتنى
من زيف أحلامى وغدر مشاعرى
فرأيت أنك كنت لى قيدًا
حرصت العمر ألا أكسره
فكسرته
ورأيت أنك كنت لى ذنبًا
ســــألت الله ألا يغفره
فغفرته
كونى كما تبغين
لكن لن تكونى

فأنا صنعتك من هواى، ومن جنونى
ولقد برئت من الهوى ومن الجنون

واستطاع كامل الشناوى أن يعبر فى قصائده عن أحاسيسه وحبه لمصر فى فترة كانت قاسية ، ووجد الخلاص فى الشعب الثائر قائلا :

أنا الشعب لا أعرف المستحيلا
ولا أرتضــى بالخلــود بديلا
بــلادى مفتوحــة كالسمــاء
تضم الصديـق وتمحو الدخيلا

ولم تكن عاطفة الحب عند كامل الشناوى ، هى فقط المعاناة والتجربة الشخصية ، بل كانت شعلة تنير الطريق أمام كلماته الشعرية النارية حنًا والراقصة حنًا ، حيث صورت بطولة المرأة فى كفاح الجزائر ، وفى هذا الحوار بين جميلة التى ترفض أن تبوح باسم قائد الفدائيين ، وبين قائدها الذى طلب منها فى رسالة أن تبوح باسمه لأنهم فى حاجة إليها خارج السجن ، فتتخيله أمامها يحدثها وتحدثه ، ويدور بينهما هذا الحوار :

جميلة : يا حبيبى فى دمى صوتك
ينساب ، يغنى ويدوى
مالكًا نومى ، وصحوى
وانفعالاتى
وأنفاس وجودى !!

يا حبيبى ، يا حبيبى
لا تخاطبنى بألفاظ عدوى !!
كيف تدعونى باسم الحب
أن أذكر اسمك ؟
يا حبيبى ..
كيف ألقى لذئاب الغاب لحمك ؟
لست أحميك لحبى
لست أحميك لقلبى
أنا أحبك لشعبى !!
باسل : أنا أغضبتك كى أرضى ضميرى !!
جميلة : أنت أذنبت
لكى تحمى مصيرى !!
باسل : ليس ذنبًا أن أخاف عليك
من سوء العذاب !!
جميلة : ليس مثل الخوف ذنب
وهو لى أقسى عقاب !!
باسل : هل ترين الحب عيبًا ؟ !
جميلة : أنا أحببت عيوبك

باسل : لك روحى .. ما تريدين ؟ أجيبى ؟ ! .

لقد عشق كامل الشناوى الحياة وطارت منه الأيام ، وقد سألته إحدى المعجبات بشعره ذات يوم :

فتاة : لماذا لا تفكر فى الزواج يا أستاذ كامل ؟ أنت فى حاجة إلى من تشاركك حياتك .

كامل : لم تعد لى حياة يا فتاتى حتى يشاركنى فيها أحد .

فتاة : أنت متشائم أكثر مما تبغى .

كامل : بل أنا واقعى كما ينبغى .

فتاة : لم أفهم ماذا تعنى ؟ .

كامل : لن أتزوج ، فقد جاوزت الخمسين .

فتاة : هذه هى سن العقل والحكمة .

كامل : هل ترينني عاقلا وحكيما ؟ .

فتاة : طبعـًا .

كامل : كيف إذن أتزوج ؟ .

* * *

وكان كامل الشناوى رومانسيا فى تفكيره ، ولذلك كان متشائمًا ، فهو رجل مثالى له قيم دينية ، ولكنه لا يجد حلاً لتعاسة الدنيا ، فكان يرى أن الألم والعذاب والوحدة والغدر هى عناصر هذه الحياة ، وكلما

جاء يوم ٧ ديسمبر من كل عام تترقرق الدموع فى عينيه ، إنه يوم مولده فيترنم قائلا :

عدت يا يوم مولدى
عدت يا أيها الشقى
الصبا ضاع من يدى
وغزا الشيب مفرقى
لست يا يوم مولدى
كنت يوما بلا غد !!
أنا عمر بلا شباب !!
وحياة بلا ربيع !!
أشترى الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع !!

لقد فارق كامل الشناوى الحياة التى كان يعشقها من كل قلبه ، ولكن نبضات قلبه فى تلك الكلمات التى تركها لنا تجعله حيًّا معنا بفكره ، ورؤيته للحياة :

يارب فيم خلقتنا
وتركتنا نهب الضباب
فلا سلام ولا سناء
وندب فوق الأرض
لا تدرى بها

وندب فوق الأرض
لا تـــدرى بنـا ؟
أنـــا مـن أنـــا ؟
أنـــا من أكـــون
وســــيلة أم غاية ؟
أنا لست أعرف من أنا

فهرس الكتاب

الموضوع — الصفحة

الأستاذ فتحى الإبيـارى

- مدير تحرير مجلة أكتوبر
- رئيس تحرير مجلة « عالم القصة »
- ورئيس تحرير جريدة « المستقبل »
- له العديد من الكتب فى مجال الـدراسات السيـاسيـة والإعــلام والـرأى العام والـدراسات الأدبيـة والنقدية والقصصية . وأشهرها موسوعة الأم – عالم تيمور القصصى – الرأى العام والمخطط الصهيـونى – وموسوعة « المحمديات » .

رقم الإيداع	٣٦٩٧/ ١٩٩٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4914-9

١/٩٣/٩٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)